البحث عن النوبة

Search for Nubia

تأليف ورسوم
فريد فاضل

البحث عن النوبة

تأليف ورسوم
فـــريد فـــاضـــل

برعاية

تقديـــم

فنـان يـرسم النوبـة كابـن من أبنـائـها

الفنان "فريد فاضل" الصعيدى إبن أسيوط، فريد فى تكوينه الثقافى وفى إهتماماته المتنوعة والغزيرة التى فجرتها نشأته وتطوره، آخذة إياه إلى مستوى رفيع على كافة الأصعدة التى انشغل بها حتى الاستغراق.

موهبته الثرية جمعت فى أعماقه بين "الطب" الذى وصل فيه إلى شأو بعيد فهو استشارى طب وجراحة العيون وهو أيضاً الفنان التشكيلى فى التصوير والحفر، وهو أيضاً الموسيقى الذى يجيد باحتراف العزف على البيانو والكمان فى حفلات كونسير جماعية مع كورال القاهرة، وحفلات الريستال متخصصاً فى أعمال الكلاسيكيين والرومانسيين إضافة إلى الغناء الكلاسيكى من طبقة الباريتون، ومشاركاً بإبداعاته فى الرسم والحفر فى عشرات المعارض الفنية فردياً وجماعياً على طول مدن مصـر وأمريـكا وإيطاليـا وحـائـز على الميداليـات الذهبيـة والفضية، مرتحلاً إلى صحارى ووديان وبحار الوطن مبدعاً مشاهدها راسماً إياها بفرشاته الحساسة الناضجة كأنما يجمع فى إهابه جماع عمل علماء ومصورى الحملة الفرنسية على مصر فى وصفهم لها ، وليحط رحاله فى أرض النوبة... ناسها وقراها ونجوعها راسماً مظاهر الحياة فيها من أبو سمبل وحتى "غرب سهيل".... جاء النوبة لا زائراً ولكن مقيماً بروحه وجماع نفسه وحبه بين أهلها وناسها، ملتصقاً بحميمية بهم ومعايشاً لهم، حتى كانت لوحاته المعبرة بصدق عن النوبة والنوبيين، ومكنته دراساته وخبراته العميقة لأن تكون له رؤيته الخاصة بعيداً عن كل الفنانين الذين زاروا النوبة وأبدعوا لوحاتهم الخاصة.

إن لإبداعات "فريد فاضل" بخطوطه ومساحاته وتشكيلاته لوحدات لوحاته طابع خاص.. إنه ليس ذلك السائح الذى يرى من الخـارج... إن إبـداعه تأكيد للإختلاف الحاد بين نتاج من عاش النوبة عبر ناسها وعلاقـاته الحميمية بـأبنائهـا والغوص فى أعمـاق وجودهـا مستلمها كل الناس، وبين من جاء من بعيـد يراهـا ويسجـل ما يـرى كأنه آلة تصويـر.. إنها فروق الدهشة والانبهار والفهم... إنـه الوهـج المندس فى تضاعيف كل خط ولون، والذى يراه المحب كأنه مقيم بين ظهراً فى القدم وغير وافد سائح.

لوحاته بها صفاء النوبة وشاعرية الطبيعية، كما أن دقة ورقة الخطوط تشع بنقاء داخلى يمكن الرائى بأن يمسك بيديه أوتار مشاعر الرسام الفنان المتفجر فى مزيج مدهش من التراث القديم .. المصرى القديم والنوبى والقبطى والإسلامى ..إنه الفريد فاضل.

يحيى مختار

روائى من النوبة

البحث عن النوبـة ..... الاحتيـاج للنوبــة

(مقدمة الفنــان)

فى هذه الأيام الغريبة الصعبة وأكثر من أى وقت مضى نحتاج إلى إبتسامة صافية تعكس قلباً سعيداً يرقص فرحاً مشاعره حقيقية، طازجة، مرهفة لها صلة مباشرة بأسارير الوجه تماماً مثل إبتسامة شاب نوبى أسمر تكشف عن أسنان بيضاء تصطف كعقد لؤلؤى حر أحس فى الابتسامة النوبية بالصدق ... نعم الصدق كما أطرب بونسة أهل النوبة على إيقاع الدفوف والأحباب يغنون للنيل والصحبة والغربة بلغة الكنوز أو الفاديجا .... لا فرق عندى أحب اللقاء حول كوب الشاى بالحليب ومشاكسات الأصحاب والرطان الذى لا أفهمه ولكن أحس موسيقاه وأنطباعاته على وجوه الجالسين أعشق الرقص الذى يستمد إيحـاءاته وإيمـاءاتـه من أمواج النيل وحركة الأسماك وتمايل شواشى النخيل، الرقص الجماعى الذى يشترك فيه الرجال والنساء دون ابتذال أو خلاعة ... رقص يتحـد بالطبيعة فى إنسجام تام سواء كان كف أو أراجيد أو رقصة الفرى.

أحب بساطة البيت النوبى ..... الحوش السماوى المفتوح الذى يردد معابد أخناتون والتى كانت بلا سقف يحجب أشعة الشمس فتدخل أيادى رع البيضاء لتوزع الخير على البشر أجمعين ... أحب المزيرة فى يوم قائظ الحر وأحب الأبراش والأكراج المعلقة فى حجرة العروس.

أحب أن أجلس فى الظل وأتـابـع بعينى الحركـة الدائبة لإعداد طعام الغداء.

أتلذذ بالأبرية بعصير الليمون أو أورمة بصل، ويـاحبذا لو كـان هناك جاكوت بكل أنواع الخضرة ... ياسلام ... وبجواره تلمع أكـواب الكركديه المثلج .... أتناول خيرات الأرض وتمر النخيل على أنواعه وأستمتع بصحبة رائعة لناس لا تحب النكد وتحتفل بالأفراح لأسابيع طويلة أشتاق لـرؤية بنـات النوبة وجرجارهـن يشف عن جلابيب ملونة، وتزين جيدهن حلى ذهبية كبيرة .. تردد صداها أقراط مستديرة تلمع تحت سهام الشمس الملتهبة وتعكس بريقها على حلى الأنـف والشعر فتبدو الفتاة النوبية كعروس دائمة الشباب، ناضرة لا تشيخ أبداً.

تمنحنى النوبة كل مفردات اليوتوبيا لأحلق بعيداً فى أحلامى استلهم منها البلد القديمة والنيل وحكايات الأجداد .. تتمثل أمامى مثل درر منفرطة تسكن بيـن فراغـاتهـا شحنـات الخيال لتهبنـى فى النهـايـة فيضـاً لا ينقطـع من الإبداع ..... أحتاج للنوبة.

فريد فاضل

أكتوبر ٢٠١٠

تـــاريـخ بـــلاد النوبـــــة

كانت بلاد النوبة على مر التاريخ بمثابة ممر أستراتيجى بين شمال أفريقيا وأفريقيا السوداء، ويبدو أنها كانت منطقة عامرة بالنشاط الإنسانى فى عصور ما قبل التاريخ حيث كانت المياه تغمر الصحراء الغربية وبالتالى سكن الإنسان الكهوف وسجل حياته اليومية على جدرانها فى رسوم بسيطة تمثل الحيوانات والنباتات والصيد والسباحة مما يشير أنه منذ الآف السنين كانت الحياة فى جنوب وغرب مصر مختلفة تماماً عن طبيعتها الحالية.

وفى عصور ما قبل التاريخ كان الإنسان يتحرك فى مجموعات تشبه القبائل بحثاً عن الطعام، وكانوا يعتمدون فى معيشتهم على صيد الأسماك من النيل وصيد الغزلان والماشية البرية كما يظهر فى نقوشهم البدائية على الصخور بالإضافة إلى النباتات البرية حيث لم تكن الزراعة المنظمة قد بدأت بعد ، فالإنسان بدأ بإستخدام بعض الأحجار ذات الحواف الحادة فى قطع النباتات وسلخ الحيوانات وذلك فى العصر الحجرى القديم ثم تطورت إلى فؤوس حجرية يدوية فى العصر الحجرى الوسيط مع بعض المكاشط وأدوات حجرية أخرى، ثم تطورت أساليب الصناعة اليدوية فى العصر الحجرى الحديث فنجد الأوانى الفخارية المنقوشة والرماح ذات الرؤوس المدببة المصنوعة من العظام، وتزامن ذلك مع زيادة الرطوبة مما أتاح بدايات الزراعة والاستقرار.

والسؤال الان: ماذا كان يحدث فى النوبة فى فجر الحضارة المصرية بوادى النيل ؟

تزامنت حضارة نقادة بالصعيد مع حضارة المجموعة "أ" فى بلاد النوبة والتى تركت آثارها بين أسوان شمالاً وحتى الجندل الثانى وتختطها إلى منطقة عكاشة بشمال السودان ويعود تاريخها إلى ٣٧٠٠ ق.م.

أثرت النشأة المحلية لحضارة ما قبل الأسرات فى التشابه الواضح بين آثار نقادة وآثار النوبة من حيث الأوانى الفخارية المنقوشة وطريقة الدفن من حيث وضع الميت وتنسيق أوانى القرابين حوله وقد عثر على هياكل عظمية فى وضع الجنين واستمرت طقوس الدفن هذه فى النوبة بينما واصلت حضارة الشمال تقدمها ببداية الدولة القديمة مع الملك مينا موحد القطرين والذى صاحب حكمه تطوير مذهل لطريقة إدارة دولة كبيرة تحتاج لنظام خاص لبسط النفوذ والاستقرار وإستغلال الموارد وبينما انتعشت العلوم والفنون لتلاحق التطور الثقافى السياسى لمصر العليا والدلتا، نجد أن أهالى النوبة تمسكوا بطريقتهم البسيطة فى الحياة وهى سمة لم تفارقهم على مدار العصور وبذلك ظل الجندل الأول يفصل بين أسلوبين فى الحياة، التطور السريع فى الشمال والتمسك بالطرق القديمة فى الجنوب فى بلاد النوبة.

على أن حضارة المجموعة الأولى لم تدم طويلاً فقد بدأت الحملات العسكرية المصرية فى التوافد على بلاد النوبة منذ الأسرة الأولى وذلك لإخضاع النوبيين وتأسيس طرق التجارة مع أفريقيا. وقد قام الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة بحملة ناجحة على النوبة، وكان من نتائجها أنه أحضر معه سبعة الاف أسير ومائتى ألف من الماشية . وقد يكون هذا ما عجل بنهاية حضارة المجموعة "أ" والتى تمركز بقاياها فى وادى حلفا.

شهدت الأسرة السادسة إهتماماً كبيرا ببلاد النوبة ويظهر ذلك فى نقوش مقابر النبلاء بأسوان والذين قاموا برحلات إلى الجنوب ومنهم "ونى" الذى رقى إلى وظيفة حاكم الجنوب و"حرخوف" الذى قام بأربعة رحلات على الأقل لبلاد "يام" ليجلب منها البخور والأبنوس والحبوب والفهود والعاج وعصى الرماية. وفى الرحلة الأخيرة يفتخر حرخوف بإحضاره هدية غريبة للملك ببى الثانى متمثلة فى قزم نادر الوجود مثير للإعجاب. حافظ عليه حرخوف فى الرحلة كى يصل به للملك سليماً!

أما حضارة المجموعة الثالثة (C group) فقد أزدهرت بنهاية الأسرة السادسة وانهيار السلطة فى مصر. فمع بداية عصر الانتقال الأول (ما بين الأسرات) فقدت مصر سيطرتها على النوبة .... وانتعش النوبيون على طول ضفتى النيل جنوب الجندل الأول وكانوا يربون الماشية وكانت رؤوس الماشية التى تذبح فى الجنازات تدفن حول مقابرهم فى احتفال كبير. وكانت قبورهم دائرية لها طابع خاص وعثر بجوار بعضها على أعمدة حجرية نقشت عليها رسوم بعض الماشية ومن المحتمل أن يكون انتقال المجموعة الثالثة للعيش على ضفاف النيل هو بسبب الجفاف الذى أصاب المراعى وظاهرة التصحر التى أصابت بلاد النوبة فى ذلك الزمن الغابر .... وقد حاول بعض الأثريين مثل د.جورج رايسنر من جامعة هارفرد أن يربط المجموعة "أ" بالمجموعة "ج" بما أسماه المجموعة "ب" ولكن هذا الافتراض لم يحظى بالقبول بين العلماء نظراً لنهاية آثار المجموعة الأولى بنهاية الأسرة الثانية من الدولة القديمة.

وبقيام الدولة الوسطى، عقدت القوة العسكرية فى مصر العزم على غزو النوبة لتأمين حدودها الجنوبية وبالطبع لم تكن المقاومة من جانب المجموعة "ج" لأنهم كانوا رعاة متبدين بالمقام الأول .. بل كانت جيوش "كرما" العاتية هى العدو الأساسى ويظهر أنهم استقروا جنوب الجندل الثالث وبسطوا نفوذهم شمالاً. ولقد توالت حملات الفراعنة ضدهم طوال قرن من الزمان حتى أكدت مصر سيادتها على النوبة

وقامت ببناء ١٢ قلعة حصينة فى منطقة الشلال الثانى لتؤكد وتؤسس حدود مصر مع النوبة عند "سمنة".

وفى عصر الملك منتوحتب الثانى من الأسرة الحادية عشر، تم تأسيس طرق تصل الوادى بالواحات والنوبة، ومع بداية الأسرة الثانية عشر توجه مؤسسها الملك أمنمحات الأول بحملات ناجحة لبلاد النوبة سجلها فى ما كتب لابنه قائلاً (أذللت الأسود وأصطدت التماسيح وقهرت أهل واوات وأسرت قوم المازوى) وهناك أدلة أثرية على استغلال محاجر الديوريت شمال الجندل الثانى فى عهده بالإضافة إلى إعادة التجارة مع "كرما" فى الجنوب.

وبعد موته، اعتلى ابنه "سنوسرت الأول" عرش مصر وكان قائداً حربياً فذاً ارتفع بمكانة مصر وأكدها كقوة عظمى فى العالم القديم، واستمر إهتمام الفراعنة بتأمين الحدود الجنوبية لمصر حتى قام الملك "سنوسرت الثالث" بتعميق وتطهير قناة النيل شرق جزيرة سهيل ليمهد طريقاً آمناً لعبور أسطوله الحربى للنوبة، وقد سهلت هذه القناة حركة الملاحة التجارية فيما بعد وتم بناء أكثر من عشرة قلاع فى منطقة "بطن الحجر" الوعرة جنوب وادى حلفا تبدأ بقلعة "بوهين" ثم "أكور" و"إيكن" "دابنارتى" و"أسكوت" و"شلفاك" وثم "أورونارتى" نهاية بقلعة "سمنة" و"قمة" جنوباً.

أمنون إيردیس
١٨ X ٤٠ سم، رسم بالأقلام

Amenirdis
18 X 40 cm, Drawing

ومع بداية عصر الإنتقال الثانى تزامن ضعف مصر مع وحدة دولة "كوش" وكانت دولة مستقلة يحكمها أحد أبناءها ومقرها "كرما". وأثناء ذلك هاجم الهكسوس مصر ولكنهم لم يبسطوا سلطانهم على النوبة بل هناك بعض الشواهد التى تشير إلى نوع من التبادل التجارى بين الهكسوس والكوشيين.

ومع بداية الدولة الحديثة بدأت الثورة والمقاومة ضد الهكسوس من إقليم طيبة ونجح أحمس فى طرد الهكسوس الذين حاولوا إستمالة الكوشيين لمساعدتهم دون جدوى، ثم قام بإرسال أحد قادته "أحمس بن أبانه" فى حملة تأديبية بالنوبة حتى أحكم السيطرة على المنطقة بين الجندلين، وهكذا أعاد الملك أحمس الحدود الجنوبية لمصر لما كانت عليه وقت الدولة الوسطى، وانتشرت عبادة أمون رع بالنوبة خاصة مع وجود مصريين كثيرين كانوا قد هربوا إليها بالفعل خوفاً من بطش الهكسوس، وبسرعة تمصرت النوبة السفلى وزالت قوة مملكة الكوشيين فى كرما تماماً على يد "أمنحوتب الأول" الذى كان ملكاً مقاتلاً وقام بتوسيع حدود البلاد حتى الجندل الرابع.

وفى تلك الفترة التى تميزت بالقوة والرخاء ظهر الإهتمام ببناء المعابد فى النوبة فتركت الملكة حتشبسوت معبدين أحدهما مكرساً للإلهة حتحور فى "فرس" والآخر قامت بتشييده فى قلعة "بوهين"، وتوغلت جيوش الملك تحتمس الثالث فى النوبة العليا واهتم بإستخراج الذهب وتأمين الطرق للمناجم فى صحراء النوبة الشرقية بالقرب من المحرقة وكان إنتاج بلاد الواوات من الذهب يفوق إنتاج بلاد كوش بثلاثة أضعاف وقد شيد تحتمس الثالث معبد "عمدا" وكرسه لعبادة "أمون رع" و"رع حور أختى" وقد أكمل بناء المعبد ابنه أمنحتب الثانى. كما شيد عدة معابد أخرى فى أماكن متفرقة بالنوبة وهناك اثار تخصه فى سای وجبل برقل وقصر أبريم حتى فى النقعة بالسودان.

أما الملك أمنحتب الثالث فقد أقام معبداً رائعاً فى "صولب" أسفل الجندل الثالث وهناك أدلة أن الملك أخناتون قد استخدم نوبيين من قبائل المازوى فى جهاز شرطة مدينة أخت أتون (تل العمارنة) للحفاظ على الأمن. وقد أسس أيضاً مدينة "جم أتون" جنوبى دنقلة الحديثة. وفى عهد الملك حور محب قامت حملة عسكرية على كوش لتثبيت ملكه كما قام بنحت معبده فى أبو عودة جنوب أبو سمبل. كما واصل الملك سيتى الأول الإهتمام ببلاد النوبة وتأمين استخراج الذهب، ثم قام أيضاً بترميم معبد عمدا بعدما لحقه من تخريب أثناء ملك أخناتون.

وفى عصر الملك رمسيس الثانى تم بناء كثير من معابد النوبة التى تم إنقاذ أغلبها ومنها معابد "بيت الوالى"، "جرف حسين"، "وادى السبوعة"، "الدر"، "عكاشة"، "عمارة"، ومعبدى "أبو سمبل" الكبير والصغير.

وفى نهاية الحكم الطويل لرمسيس الثانى بدأت مظاهر التدهور تشمل البلاد ولم تستقر الأمور حتى تولى الملك رمسيس الثالث الحكم فساد البلاد استقرار نسبى لمدة ٣٢ عاماً كانت فترة نهاية الأسرة الرابعة والعشرين.

وقد توجه كثير من كهنة أمون جنوباً نحو جبل برقل فى كوش والذى كان مركزاً هاماً لعبادة الإله "أمون رع" وكانت مدينة نبتا التى تقوم عند سفح الجبل مليئة بالمعابد والقصور المهمة بالإضافة إلى أهميتها التجارية.

الأسرة الخامسة والعشرون

إن أول أسم نعرفه من هذه الأسرة هو أسم "ألارا" ثم خلفه ابنه "كاشتا" على عرش كوش فى نبتا ثم تولى الحكم ابنه "بعنخى" الذى أرسل جيشاً ليواجه "تاف – نخت" الذى كان قد بدأ زحفه جنوباً. ولم يرسل بعنخى هذا الجيش غازياً بل ليؤيد أمون وكهنته بطيبة ويؤكد ولاءه لعبادة أمون، وقد حقق جيشه إنتصارات متوالية ولاسيما بعد أن ذهب ليقود جيشه بنفسه فسقطت فى يديه مدينة الأشمونين، ثم حاصر منف وتمكن من دخولها بلعبة عسكرية ذكية، وبسقوط منف سارع بقية أمراء الدلتا بتقديم ولائهم لملك كوش المنتصر "بعنخى" وبذلك اعترف الجميع به ملكاً لمصر الموحدة .. وما أن أطمئن إلى سيادته على البلاد حتى قفل راجعاً إلى نبتا دون أن يعين حكاماً يمثلونه فى الشمال. بل اكتفى بوعود تاف نخت وبقية الأمراء ككلمة شرف ، وما أن إطمئن تاف نخت إلى رحيل بعنخى حتى بدأ مرة أخرى يفرض سيطرته على الشمال ونصب نفسه حاكم القطرين وحكم مصر لمدة عشرة سنين ثم تلاه ابنه الذى لقبه اليونانين "بوخوريس" وحكم ستة سنوات انتهت بعودة الملك "شاباكو" خليفة "بعنخى" لاسترداد الحكم واستعادة مصر من حكم الكوشيين.

كما أقام شاباكو الكثير من المبانى الدينية بمصر وبدأ نوعاً من سياسة المودة مع الأشوريين، وبعد ستة عشر سنة قضاها فى الحكم، خلفه أخوه "شبتكو" والذى عين أخيهم الثالث "طهرقا" قائداً للجيش والذى تحالف مع جيش فلسطين فى مقاومة جيش الأشوريين الذى أرسله الملك "سنحاريب"، ولكن سرعان ما تقهقر الأشوريون لتفشى الطاعون بين الجنود وهى القصة التى وردت فى العهد القديم (فى سفر الملوك الثانى ١٨ :٢٠-٢٢) ... وبعد ذلك مات الملك شبتكو وخلفه على العرش أخوه "طهرقا".

حاول طهرقا أن يتجنب أخطاء والده بعنخى فأقام فى صان الحجر لكى يكون قريباً من حدود مصر الشرقية، والتى شهدت مناوشات الأشوريين حتى قرر "أسرحدون" أن يؤدب مصر فدخل بجيوشه الزاحفة واستسلمت له الدلتا وفر "طهرقا" للصعيد، ولكن سرعان ما قفل راجعاً ليسترد ما سلبه الأشوريين وتكررت الهجمات .. وأثناء

ذلك مات الملك طهرقا فى نبتا، وظهرت قوة ملك اخر فى الشمال هو "بسمتك الأول" والذى لقى مساعدة من الأشوريين أنفسهم.

ثم خلف الملك "تانوت أمانى" عمه طهرقا على عرش نبتا وجمع جيشاً وسار حتى طيبة واستولى أيضاً على منف وبينما كان يقدم أمراء الدلتا الولاء له زحف جيش اخر للأشوريين على مصر وفى هذه المرة لقى تانوت أمانى هزيمة منكرة وسقطت طيبة فى أيدى الأشوريين الذين دنسوا مقدساتها، وذاقت معابدها ويلات النهب والتخريب ووقع أهلها فى الأسر والذل وانسحب تانوت أمانى إلى نباتا ولم يعد ثانية إلى طيبة ومنف لتنتهى الأسرة الخامسة والعشرون فى مصر عام ٦٦٤ ق.م.

بانوراما فيلة
٥٠ X ١٠٠ سم، زيت على قماش

Philae Panorama
50 X 100 cm, Oil on canvas

مملكـة مـروى

وإذا ما كان عصر الأسرة الخامسة والعشرين قد تميز بالولاء لأمون سواء فى الكرنك بطيبة أو جبل برقل المقدس فى كوش إلا أن هذا "التمصر" بدأ ينحسر تدريجياً مع تراجع النوبيين جنوباً وجاء ذلك لصالح حضارة أخرى فى مروى جنوب شرق نباتا حيث كانت مدينة مروى مركزاً لإنتاج المعادن، كما تميزت بأرضها الخصبة وكثرة مواشيها وتجارتها النشطة. ويحلول العام السادس قبل الميلاد كانت مروى مملكة عظيمة وطورت طرق الكتابة الخاصة بها حتى أنها ابتدعت الأبجدية المروية والتى لم يكشف الأثريين بعد كل أسرارها مما يعوق دراسة تاريخ المرويين، بالإضافة إلى تطرف أماكن الحضارة المروية فى السودان وصعوبة عمل البعثات الأثرية هناك ... ولكن فى عام ٥٢٥ ق.م وبعد أن هزم الملك قمبيز الجيش المصرى أرسل جيشاً من الفرس لملك النوبة فى مروى يحاول استمالته ولكن الملك لم ينخدع بألاعيبه وأرسلهم لملكهم يحملون رسالة بها نبرة تهديد ووعيد، مما أثار ملك الفرس الذى أرسل جيشاً نحو الجنوب ولكنه فشل فى مهمته فعاد لمصر خائباً يتضور جنوده جوعاً ... وبذلك صارت النوبة المصرية بين الجندلين الأول والثانى منطقة محايدة مما أضعف تأثير الحضارة المصرية فى النوبة العليا.

ولقد استمر العصر المروى لمدة طويلة جداً أمتدت إلى تسعة قرون من ٥٩٣ ق.م وحتى ٣٥٠ ميلادية بحيث تزامن مع العصر الفارسى والأسرات المتأخرة والعصر البطلمى والعصر الرومانى.

ويبدو أن البطالمة آثروا السلامة فبعد محاولة عسكرية واحدة ضد النوبة والتى لم تنجح، نجد العلاقات بين اليونان ومملكة مروى طيبة للغاية، فقد أدرك خلفاء الإسكندر أهمية الاحتفاظ بطريق تجارى آمن لاستجلاب كنوز أفريقيا من ذهب وعاج وأبنوس وتوابل وأفيال .... إلخ، وبدلاً من الحروب استمرت النوبة المصرية تلعب دوراً حيادياً بل دينياً متمثلاً فى قدسية معبد إيزيس بجزيرة فيلة، والذى كان مركزاً هاماً للنوبيين والمصريين على حد سواء ... ويعد معبد الدكا أحد المعابد التى شيدت فى القرن الرابع قبل الميلاد أثناء حكم الإسكندر الأكبر فى الشمال، وبه نقش جميل يمثل شو وتفنوت ولدى الإله رع فى صورة أسدين وقردين يحملون قرص الشمس الأحمر.

النوبـة والحقبـة الرومانيـة

بسقوط مصر فى أيدى الرومان عام ٣٠ ق.م، أولت روما أهمية كبرى للحدود الجنوبية وعقدوا أتفاقاً يقضى ببقاء النوبة تحت سيادة مملكة مروى، على أن تكون خاضعة للحماية الرومانية، غير أن ملكة مروى وكان اسمها "أمانى ريناس" أرسلت جيشاً للشمال حيث نجح فى الحاق الهزيمة بثلاثة فيالق رومانية واحتل جزيرة فيلة وأسوان وأخذ الأسرى وحطم تماثيل القيصر أغسطس .... وبالطبع لم تسكت روما، فقاد والى مصر جايوس بترونيوس حرباً وهزم المرويين عند دكا، وطاردهم جنوباً حتى نباتا .... وترك حامية فى إبريم.

بعد ذلك قرر الطرفان عقد معاهدة صلح تخضع بمقتضاها النوبة السفلى حتى المحرقة لحكم الرومان بينما تظل النوبة العليا تحت السيادة الإسمية لمملكة مروى، ولا يزال معبد المحرقة والذى بناه الكهنة الرومان لعبادة سيرابيس واقفاً فى منطقة السبوع الجديدة شاهداً على وجود الرومان بهذه المنطقة من النوبة المصرية... وانتعشت التجارة بين الطرفين كما شهدت مروى نهضة حضارية فى صناعة البرونز والحلى والفخار الذى تأثر بالفن البطلمى والرومانى بالإضافة إلى الفن المصرى بالطبع وبلغت مملكة مروى أوج مجدها فى القرن الأول الميلادى ثم بدأ التدهور بظهور شعبين جديدين يطلون من الصحراء هما البلميون والنوباديون.

والبلميون ينحدرون من أصول أفريقية وكانت قبائلهم تتجول بطول الصحراء الشرقية وزاد نشاطهم بالتدريج أثناء العصر البطلمى، واستغلوا سخط المصريين على الحكم الرومانى فغزوا جنوب الصعيد أكثر من مرة حتى وصلوا إلى جرجا.

أما النوباديون فأصلهم من النوبيين والليبيين الذين دأبوا الترحال فى الصحراء الغربية بين كردفان جنوباً والواحات الخارجة شمالاً ثم انتشروا فى مناطق المملكة المروية ووادى النيل فى النوبة السفلى فى عهد الملك دقلديانوس (٢٨٤ – ٣٠٥م)ثم سئم الرومان من هجمات البلميين فسحبوا جيشهم من النوبة السفلى وتركوا منطقة الدوديكاسخوينوس فى أيدى النوباديين ليشكلوا جداراً عازلاً بينهم وبين البلميين مستغلين بذلك العداوة بين الطرفين وكان لذلك أثراً سيئاً على مملكة مروى حيث فقدت بذلك طريق تجارتها الآمن مع مصر ... ومما زاد طينتهم بلة بزوغ مركز تجارى مزدهر وهو مملكة أكسوم فى شمال الحبشة مما سحب البساط تماماً من المرويين فزالت مملكتهم بحلول عام ٣٥٠ميلادياً.

حضارة بلانة وقسطل

بعد إنهيار مملكة مروى، يبدوا أن النوبة العليا قطنتها بعض القبائل الأفريقية التى لم تهتم بالحضارة ولم تترك آثاراً ذات قيمة، ولكن الموضوع كان مختلفاً فى النوبة السفلى حيث أثبتت الحفائر التى بدأت مع بناء خزان أسوان وجود حضارة لمجموعة مجهولة أطلق عليها العلامة جورج رايزنر المجموعة "س" أو (X Group) ولكن الإكتشافات التى قام بها الأثرى البريطانى العظيم والتر إيمرى أكدت أنه كانت هناك حضارة منظمة قوامها قبائل البلميين الذين نافسوا النوباديين على الإستقرار على ضفاف نيل النوبة جنوب الجندل الأول وحتى الجندل الثالث وعلى الرغم من وجود حكم منظم لهذا الشعب إلا أنه لم يعرف القراءة والكتابة نظراً لأصوله البدوية ولم يجتمع تحت لواء دين واحد (مثل إجتماع المرويين حول عبادة آمون) إلا أنه اهتم بالصناعات

اليدوية من فخار وحلى وأعمال الفضة والرماح والسهام، وعندما يموت الملك تقتل زوجته وبعض أتباعه وجنـوده لكى يدفنـوا معه فى المقبرة، بالإضافة إلى خيوله المفضلة التى كانت تقتل أيضاً وتدفن معه مع كامل زينتها الفضية. وقد أثار شكل مقابرهم فضول الرحالة إيميليا إدواردز فى القرن التاسع عشر حيث لاحظت وجود آكام مستديرة منتظمة الشكل ذات أحجام مختلفة ولا تبدو من صنع الطبيعة، ولكن لم تسنح الفرصة عندئذ لفحصها، وذلك هو ما أثار فضول د.ايمرى الذى كان له فضل اكتشاف عدد كبير من هذه المقابر التى كانت تحوى أيضاً كنوز من الفضة والأحجار الكريمة ويحتفظ ببعضها متحف النوبة بأسوان.

وعلى الرغم من وجود مقابر ملوكهم فى بلانة وقسطل جنوب أبو سمبل إلا أن أكبر تجمع لمقابرهم يوجد حول منطقة قصر أبريم... ولقد دانوا بالوثنية وكانت للإلهة إيزيس مكانة خاصة لديهم، ولذلك اهتم الرومان ببناء المقابر فى جزيـرة فيلة حيث كانت مقصد حجهم وسمحوا للبلميين باستعارة تمثال إيزيس لفترة من كل عام لممارسة طقوس النبؤة، ثم إرجاعه للجزيرة مرة أخرى ... وقد سار الحال على ذلك من عام ٢٥٠ وحتى ٥٥٠ ميلادية.

دخول المسيحية بلاد النوبة

جاء دخول المسيحية بلاد النوبة متأخراً نسبياً عن تاريخ دخولها بقية مصر. فعندما اعلن الامبراطور البيزنطى ثيودوسيس المسيحية ديناً رسمياً للدولة عام ٣٨٠ م قام بعد ذلك بإغلاق معابد الآلهة فى مصر والنوبة بما فى ذلك معبد ايزيس فى فيله مما أثار المشاعر الدينية لدى البلميين والنوبيين، واجتمعوا رغم عدواتهم السابقة ليوحدوا صفوفهم ضد المسيحية وشنوا غارات على الواحات الخارجة وحاصروا طيبة واديرتها فى منتصف القرن الخامس، وبالطبع تصدى لهم الرومان والبيزنطيين والحقوا بهم الهزائم .. وسرعان ما وجدت العقيدة المسيحية طريقها الى النوبة عن طريق التجار وأيضاً المصريين الذين كانوا قد رحلوا جنوبـا هرباً من اضطهـاد الرومـان فى اوائل عصور المسيحية، وهناك أدلة أثرية فى صورة صلبـان وزخـارف قبطيـة وجدت فى مقابر بلانة بجوار الحلى التى استلهمت الديانات الوطنية .. ومع بداية القرن السادس تغير الوضع السياسى بظهور ثلاث ممالك مستقلة، مملكة نوباديا والتى امتدت بين الجندل الاول والثالث، ثم مملكة مقريا والتى امتـدت من دنقلة العجـوز حتى مابين الجنـدل الرابع والخامس، وأخيراً مملكة علوة وعاصمتها سوبا على النيل الأزرق، شمال شرق الخرطوم.

وتزامن تأسيس هذه الممالك مع بعثات تبشيرية أرسلها الامبراطور جستينيان فى منتصف القرن السادس، فاعتنق سلكو ملك نوباديا

المسيحية حوالى عام ٥٤٣ ميلادية. ثم اعتنقت مملكة علوة المسيحية فى عام ٥٨٠ على يد المبشر لونجين. اما مملكة مقريا فكانت آخر الممالك التى تعتنق المسيحية بالنوبة.

اعتنقت مملكتى نوباديا وعلوة المذهب المونوفيستى والذى يؤكد الطبيعة الواحدة للسيد المسيح والتى اجتمع فيها الناسوت واللاهوت بينما سلكت مملكة مقريا مسلك البيزنطيين واعتنقت المذهب الديوفستى والذى يؤمن بأن يسوع المسيح كانت له طبيعتين ... ولكن مع تأثير الكنيسة القبطية المتزايدة ببلاد النوبة وتراجع الدور البيزنطى بدخول الاسلام اعتنقت مملكة مقريا أيضاً مبدأ الطبيعة الواحدة وصارت النوبة المسيحية تحت رعاية واشراف الكرسى البابوى بالإسكندرية والذى يقوم بتعيين الأساقفة وكان أهم الأبروشيات أبروشية فرس ودنقلة ثم إبريم بعد ذلك وكان لاكتشاف البعثة الأثرية البولندية كاتدرائية فرس بعداً هاماً فى إلقاء الضوء على روعة الفن المسيحى فى النوبة فى بداية القرن الحادى عشر حيث كشفت البعثة عن أجمل الرسوم الدينية "الفريسك" التى نعرفها حتى الان وعددها ١٦٩ لوحة على جدران كاتدرائية فرس ذلك اثناء المسح الاثرى أبان بناء السد العالى فى أوائل الستينيات .. وقد تم تقسيم اللوحات مناصفة بين الجانب السودانى والجانب البولندى.

و لحسن الحظ فان مصر نالها نصيب أيضاً من الاكتشافات المسيحية

الكشف عن فرس
٦٠ X ٨٠ سم، زيت على قماش

Discovery of Faras
50 X 80 cm. Oil on canvas

ففى قطعة أرض كـان يملكها فلاح أسمه عبد الله نرقى حوالى ٣٠٥ كم شمال شرق أبو سمبل عثرت البعثة الهولندية بقيادة الدكتور شنـايدر على كنيسة صغيرة مبنية بالطوب اللبن بها تصاوير جدارية فى حالة جيدة نتيجة غمرهـا بالرمـال التى حفظت ألوانها من ويلات الزمن وعوامل التعرية وقد نقلت اللوحات إلى متحف النوبة . وهناك منظر واحد بالطابق الثانى فى المتحف القبطى.

وقـد تـم العثـور على برديـات من العصر المسيحى بـإبريم، مكتوبة باللغة النوبيـة القديمة مستخدمة حروف قبطية يونانية وهناك محاولات لإحياء هذه الطريقة فى الكتابة لتدوين اللغة النوبية الحديثة (بالذات لهجة الفاديجا) ... كما تم العثور على نماذج من الحفر على الخشب والأوانى الفخارية المزخرفة والنسجيات الدقيقة الصنع أيضاً فى منطقة إبريم، وهى تشبه إلى حد كبير مثيلاتها فى الفن القبطى بمصر.

أمـا عن بقية الكنائس فى النوبة فالمتبقى منها قليل جداً قد اختفى بين القرنين التاسع عشر والعشرون، وهناك وصف دقيق لها بكتاب سومرز كلارك "الآثار القبطية فى وادى النيل" وقد زار أطلال كنـائس النوبة من وادى غزالى جنوباً وحتى دير الأنبـا سمعان بصحراء مدينة أسوان شمـالا ثم أكمل مسيرته بمصر ليسجل الناحية المعمارية والفنية للأبنية القبطية القديمة.

النوبة والإسلام

عند دخول العرب لمصر عام ٦٤١م بقيادة عمرو بن العاص تـم إرسـال حملة إلى النوبة تحت قيادة عبد الله بن سعد بن أبى السرح ولكنها رجعت خائبة بعد أن واجهت مقاومة عنيفة من مملكة النوبة القوية، ولكن عادت الكرة مرة أخرى وبنفس القائد أثناء خلافة عثمان بن عفان، وفى هذه المرة واصل عبد الله بن سعد تقدمه نحو دنقلة وكان القتال شديداً، ولحقن الدمـاء عقد الطرفان هدنـة وتم توقيع معـاهدة بين المسلمين والنوبيين عرفت باسم "البقط" وكان ذلك عام ٦٥٢م، وقد سـاعدت هذه المعـاهـدة على حفظ السلام لمدة خمسـة قرون، وكـان النوبيـون بمقتضـاهـا يدفعون للعرب كل عـام ٣٦٠ رأساً من العبيد الشباب الأصحاء ذكوراً وأناث وبالمقابل يمدهم العرب بكميات محددة من القمح والشعير والعدس والثياب والخيل كما نصت المعاهدة على عدم تعرض النوبيين لأى مسلم يمر بأرضهم بالإضافة لاحترام المساجد التى تبنى فى الجنـــوب دون إجبار أحد على اعتناق الإسلام ... وكلمة بقط لها تفسيرات كثيرة ولكنها فى مجملها تحمل معنى "الضريبة" التى يتم دفعها عيناً، وقد ذكر لى أحد النوبيين أنها تعنى كلمة "نصف" بالنوبية.

وبتأمين الحدود الجنوبية لمصر نشطت المنطقة أمام التجار العرب بصفة خاصة واستقر بعض العرب ببلاد النوبة بعد أن اشتروا بعض الأراضى واعترض ملك النوبة على هذا الوضع وزعم أن الشراء باطل

لأن العبيد لا يمتلكون الأرض وبالتالى ليس لهم حق بيعها. ولكن هذه الحجة سقطت عندما أقر البائعون من النوبيين أنهم ليسوا عبيداً وأنهم باعوا أراضيهم لقبائل قحطام وربيعة ومفر وقريش بمحض إرادتهم وكان ذلك أثناء العصر العباسى ومن آثار هذا العصر مئذنتين بالقرب من أسوان.

على أن الحال لم يخلو من بعض المناوشات فى صورة عدم الإلتزام بدفع البقط من الجانب النوبى أو الإغارة على الصعيد مما استلزم إرسال حملات عسكرية للنوبة تكررت فى العصر الطولونى وعصر الإخشيد.

تزامن دخول الفاطميين لمصر مع تغلغل قبائل بنى ربيعة فى بلاد النوبة حيث استقروا فى منطقة أسوان ومريس (وادى حلفا) وتزوجوا من نوبيات واختلطوا بهم بعمق وتأثروا بلغتهم النوبية، كما تأثر النوبيون بالتقاليد والأعراف العربية، كما تمت لهم السيطرة على قبائل البجة فى الصحراء الشرقية واستفاد بنى ربيعة من نظام الوراثة فى بلاد النوبة والبجة وزوجوا أمراءهم من بنات رؤساء النوبة والبجة وبذلك رسخوا أقدامهم فى المنطقة .. واعتنق كثير من النوبيين الإسلام فى ذلك الوقت.

وحدثت ثورة أبو ركوة أثناء حكم الحاكم بأمر الله لمصر وقد شجعته إنتصاراته الأولى على التوغل نحو القاهرة ولكن كان النصر حليف

جامع حسين كوليك
٥٥ X٦٥ سم، ألوان مائية

Mosque of Hussien Kollick
55 X 65 cm, Watercolors

جيش الحاكم فى النهاية وهرب أبو ركوة للنوبة حتى تم القبض عليه بواسطة أبو المكارم هبة الله أمير بنى ربيعة الذى أرسله للقاهرة لينفذ فيه حكم الإعدام هناك ... ولذلك منح الخليفة الفاطمى لقب كنز الدولة لأمير بنى ربيعة وصار هذا اللقب متوارثاً .. وقد يكون هو أصل تسمية "الكنوز" لقاطنى المنطقة بين دابود شمالاً والمضيق جنوباً.

وفى العصر الأيوبى أرسل صلاح الدين جيشاً بقيادة أخيه (الملك العادل) عام ١١٧٤ وذلك لقمع ثورة كنز الدولة فى أسوان ونجح فى قتل كنز الدولة نفسه وهزم جيشه وتفرق بنى كنز ورحلوا جنوباً تاركين منطقة أسوان مما زاد أندماجهم مع النوبيين فى هذه المنطقة.

وتميز العصر المملوكى بكثرة الحملات التى بدأ بإرسالها الظاهر بيبرس لمواجهة ملك النوبة داوود وكان الخلاف على موانى على البحر الأحمر، ولكن معظم المواجهات بين المماليك والنوبيين كانت بسبب التأخر فى دفع البقط ... وكان أن تولى عرش النوبة أمير نوبى يدعى "عبد الله برشمبو" كان قد تربى فى البلاط السلطانى واعتنق الإسلام وذلك عام ١٣١٧ وبمساعدة السلطان الناصر محمد بين قلاوون وكان أول ملك نوبى مسلم يجلس على عرش دنقلة إلا أنه تكبر وتغطرس على أهل النوبة وغير من نظامهم فثاروا عليه وناصروا كنز الدولة "شجاع الدين بن نصر الدين بن مالك" والذى نجح فى قتل "برشمبو" وتولى الملك بدلاً منه دون موافقة السلطان والذى حاول الإطاحة به عدة مرات دون جدوى وأخيراً اعترف السلطان "الناصر محمد" بكنز الدولة شجاع ملكاً للنوبة عام ١٣٢٣، وكانت هذه نهاية مملكة مقرة المسيحية وبداية دولة بنى كنز الإسلامية والتى ظلت مسيطرة على النوبة حتى دخول العثمانيين لمصر عام ١٥١٧.

ولكن المائة سنة الأخيرة قبل دخول العثمانيين لمصر ، تميزت بمنافسة شرسة بين بنى كنز وقبائل عربية أخرى منها قبيلة جهينة وهوارة وفرازة التى رحلت جنوباً وقت المجاعة الشهيرة التى حدثت أيام المماليك بين عام ١٣٩٤ وعام ١٤٠٦، وأصبح بنى كنز تابعين لقبائل هوارة بعد رحيل قبائل جهينة جنوباً إلى السودان.

النوبة فى العصر الحديث

من المنطق أن نبدأ تاريخ النوبة الحديث مع ولاية محمد على ولكن من الأفضل تاريخياً أن نسرد القصة منذ الغزو العثمانى بقيادة سليم الأول لمصر عام ١٥١٧ ... وقد عين السلطان سليم الأول حاكماً على النوبة وأقام حصوناً فى أسوان وإبريم وجزيرة صاى وأرسل هناك حاميات من جنود البوسنة، والتى استوطن بعضها النوبة بعد طول إقامتهم بها وتزاوجوا من نوبيات.

ولكن مع تدهور أحوال السلطنة العثمانية، انتهز المماليك كالعادة الفرصة وألت إليهم أمور الحكم دون الرجوع للوالى العثمانى، وسرعان

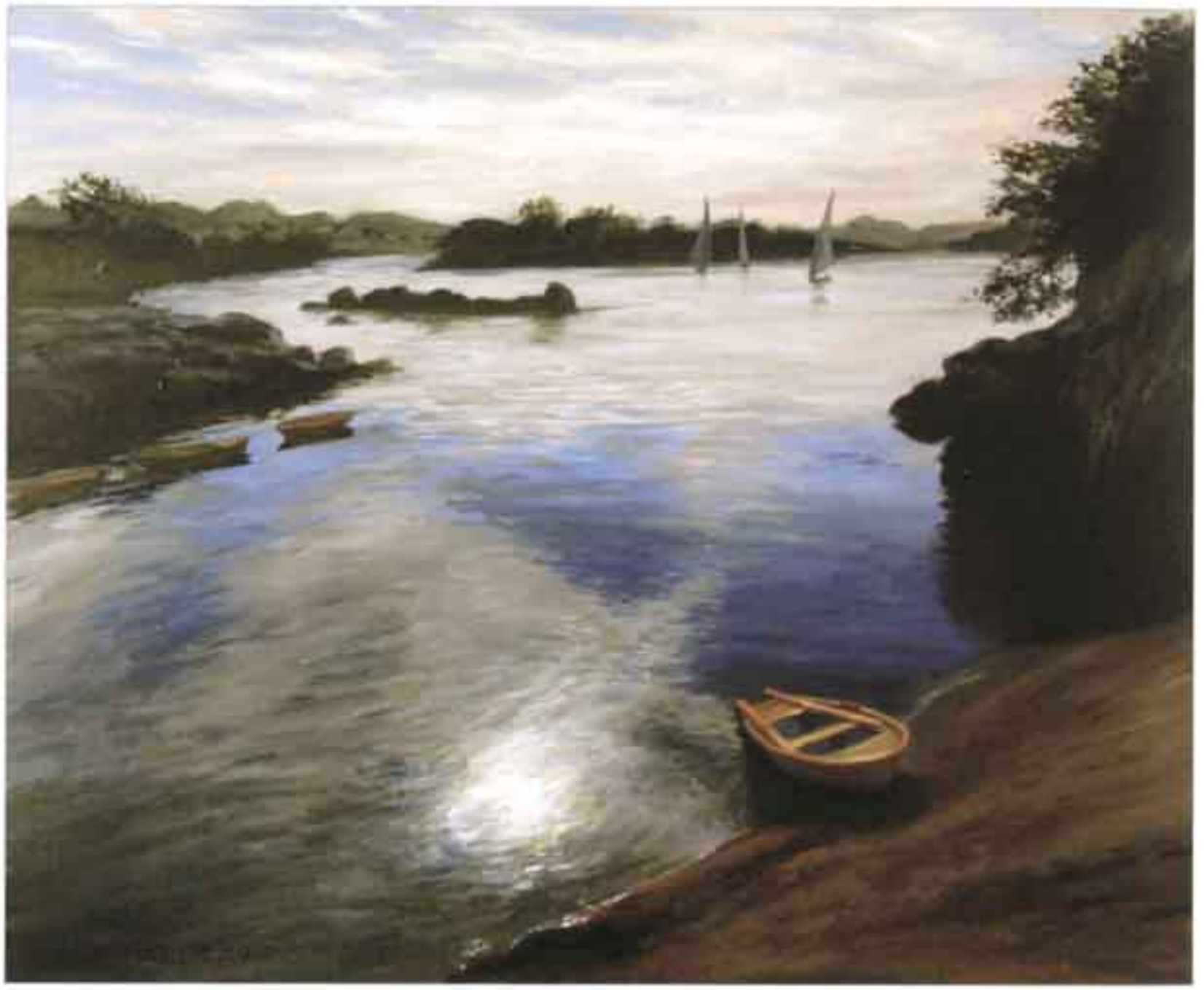

Scenery from Garb Sohail
50 X 61 cm, Oil on canvas

منظر من غرب سهيل
٥٠ X٦١ سم، زيت على قماش

ما قامت بينهم الدسائس والمؤامرات للاستحواذ بالسلطة بصفة خاصة فى منتصف القرن الثامن عشر، واستمرت الفوضى سائدة حتى دخول الحملة الفرنسية إلى مصر بقيادة نابليون بونابرت، والتى اهتمت بتسجيل كل مظاهر الحياة من آثار ومدن وعادات ... إلخ وكان للنوبة أيضاً نصيباً من الدراسات متضمنة شرح لبلادهم واصولهم العرقية ووسائل انتقالهم وتجارتهم مع مصر .. وكان لنشر هذه الدراسات أثرٌ بعيداً فى تعريف أوروبا بالنوبة واصلها مما مهد لبعثات أثرية استكشافية فيما بعد..

وهنا يجب الا نغفل أقدم الرحالة "لويس نوردن" والذى وضع كتاباً عن النوبة وارضها وعادات اهلها علم ١٧٥٧ أى ٤٠ سنة قبل الحملة الفرنسية، ولكن الكتاب الذى شرح بالتفصيل الحياة والآثار فى النوبة كان من تاليف الرحالة السويسرى "لودفيج بوركارت" والذى كان له الفضل فى إلقاء الضوء على معبد أبو سمبل مما مهد بعد ذلك للرحالة الإيطالى الأصل الإنجليزى الجنسية "بلزونى" أن يستأجر عمال لإزاحة الرمال عن مدخل المعبد، وفتح الباب أمام الزوار لاكتشاف الغرف الداخلية حتى قدس الأقداس لاول مرة عام ١٨١٧.

بدأ حكم محمد على مصر عام ١٨٠٥ وقد اهتم بضم النوبة والسودان فقاد حملة عسكرية بنفسه عام ١٨١٥ ووصل إلى دنقلة وقضى على الهاربين من المماليك هناك وأعلنت بلاد النوبة ولائها لمحمد على ثم زارها مرة أخرى عام ١٨٣٨ ووصلت الحدود الجنوبية الى جزيرة "صاى"... على أن حروبه فى الشمال أدت الى تدخل أوروبا وانتهت بتسوية لندن المعروفة، والتى حدت من تقدمه نحو الأستانة وأكدت اعتبار مصر ولاية تابعة للسلطان العثمانى وصارت بلاد النوبة والسودان من "ملحقات مصر".. وفى نهاية حكم الخديوى إسماعيل زاد تدخل اوروبا فى شئون مصر حتى كان الاحتلال الانجليزى عام ١٨٨٢، وبعد عدة سنوات اشتعلت نيران الثورة المهدية فى السودان وصارت بلاد النوبة وشمال السودان ميدانا لمعارك دارت بين جيوش الدراويش من أتباع الثورة والجيش المصرى الذى أرسل لأستعادة السودان تحت قيادة ضباط انجليز وانتهت الحملة بموقعة توشكى فى اغسطس ١٨٨٩ وتشتت جيش الدراويش وبتوقيع اتفاقية عام ١٨٩٩ انقسمت النوبة الى جزئين، الجزء الشمالى يتبع مصر والجنوبى يتبع السودان والذى كان تحت سيطرة مباشرة وكاملة للانجليز. والجدير بالذكر ان الصراع بين قوات الانجليز والثوار المهديين أثار القلاقل وأوجد حالة من عدم الاستقرار فى بلاد النوبة بعد فترة من السلام والانتعاش التجارى اثناء حكم محمد على وحتى تولى الخديو توفيق عرش مصر وخلال العشرين عاما الاخيرة من القرن التاسع عشر بدأ النوبيين فى الهجرة شمالا بحثا عن لقمة العيش وطلباً فى حياة آمنة بعيدا عن ظلال الحروب والقلاقل ..أى أن هجرتهم للشمال سبقت بناء خزان أسوان ومما تتبع ذلك من غرق أراضى النوبة.

النوبة وخزان أسوان

بدأ العمل فى خزان اسوان فى فبراير ١٨٩٩ واستغرق حوالى ٣ سنوات من العمل الدؤوب حيث تم افتتاحه بحضور الخديو عباس حلمى الثانى فى ١٠ ديسمبر ١٩٠٢، وبعد إلقاء الكلمات تقدم الخديو ممسكاً بمفتاح الخزان فأداره فاتحا خمسة أبواب تدفقت منها المياه بقوة ثم فتح الهويس فمرت سفينتان. وقد لقى المشروع معارضة من قبل الكثيرين بالذات المعنيين بالآثار مبررين ذلك بخوفهم على آثار جزيرة فيلة من جراء ارتفاع منسوب المياه خلف الخزان .. وبالفعل فقد كانت المياه تغمر أجزاء كثيرة من المعبد معظم أوقات السنة بصفة خاصة بعد التعليات المتكررة للخزان.

ولا يخفى أن قرى الكنوز الشمالية قد عانت الأمرين بعد بناء الخزان فقد فقدوا جزءاً كبيراً من أرضهم الزراعية وبعد التعلية الأولى عام ١٩١٢ اضطروا الى نقل منازلهم على المرتفعات حتى لاتغمرها المياه .. وقبل ذلك بخمسة أعوام وبالتحديد عام ١٩٠٧ قررت الحكومة المصرية إرسال بعثات أثرية لمسح أثرى شامل ببلاد النوبة وبصفة خاصة بلاد الكنوز المهددة بالغرق، وقد قام الأثرى الكبير د/ جورج رايزنر بنشر اكتشافاته الاثرية وتعريف العالم بها، ولكن الطامة الكبرى كانت فى التعلية الثانية والتى اغرقت قرى عديدة وصلت جنوبا حتى بلاد الفاديجا وحدثت عام ١٩٣٣ أيام رئيس الوزراء إسماعيل باشا صدقى ولم تكن هناك فرصة كبيرة أمام النوبيين لنقل منازلهم وامتعتهم وقد تناول الكاتب النوبى محمد خليل قاسم التأثيرات النفسية لهذه التعلية الثانية على النوبيين فى روايته الشهيرة "الشمندورة" .. وأيضاً فى هذه المرة تم عمل مسح أثرى لكل النوبة بقيادة الدكتور والتر ايمرى الذى كتب كتاباً مثير للجدل عن اكتشافاته وقد بدأ العمل عام ١٩٢٩ وانتهى عام ١٩٣٢.

النوبة والسد العالى

تمر هذه الايام خمسون سنة على وضع حجر الاساس لبناء السد العالى .. هذا المشروع الضخم الذى جاء قراره فى ظروف صعبة فعندما طلب الرئيس جمال عبد الناصر دعما لبناء السد العالى رفضت أمريكا والغرب مساعدته فاتجه لروسيا التى قدمت الدعم الفنى والمالى دون شروط ... وكان وزير الثقافة آنذاك هو الدكتور ثروت عكاشة والذى وقع على عاتقه إنقاذ آثار النوبة حيث أن المنسوب المتوقع للمياه خلف السد كان حتما سيغرق كل المعابد والقرى فى النوبة المصرية وحوالى ١٥٠ كيلو متر شمال السودان أيضاً!

وقد استمتعت وشرفت بالدكتور ثروت عكاشة شخصياً وهو يحكى لى فى منزله بالمعادى كيف ان الرئيس جمال عبد الناصر لم يصدق ان الغرب ممكن ان يدعم حملة إنقاذ الآثار بعد رفضه تدعيم بناء السد ولكن الدكتور عكاشة عرف كيف يصل الى مدير اليونسكو، ثم يتجه بنداء عالمى من باريس ليحفز كل بلاد العالم المتقدم على تدعيم جهود الإنقاذ

التفكير في التهجير
٥٠ X ٧٠ سم، زيت وخامات متعددة على خشب

Pondering Migration
50 X 70 cm, Oil & mixed media on wood

وإرسال بعثات أثرية لمسح شامل وأخير لبلاد النوبة بعدها تتوارى تماماً تحت مياه بحيرة ناصر ولقد استجابت الدول الاوربية وأمريكا واليابان لهذا النداء الإنسانى والثقافى، وكانت البعثات الاثرية تعمل ليل نهار فى جهود متواصلة خارقة، تسابق الزمن حتى تنقذ للأجيال القادمة تراثاً إنسانياً ضخماً لا نستطيع ان نتركه يغرق على مرمى البصر ونقف مكتوفى الأيدى.

وتقرر أيضاً أن تنتهى وزارة الاسكان فى يوليو عام ١٩٦٣ من بناء المساكن البديلة فى نصرالنوبة وذلك فى قرى تحمل اسماء القرى النوبية وبنفس الترتيب الجغرافى فى كوم امبو فى منطقة صحراوية يحدها جبل من الشرق وأراضٍ زراعية من الغرب، ثم تبدأ بعد ذلك عمليات التهجير تباعاً حتى يونيه ١٩٦٤، وهكذا تم تهجير قرى الكنوز أولاً ثم عرب العقيلات ثم الفاديجا وتم صرف تعويضات لكل أسرة لامجال هنا لذكر تفاصيلها. وهكذا رحل النوبيون هذه المرة الى غير رجعة بعد ان ضحوا ببلادهم حتى لا تجوع أرض مصر، فتحية لهم من القلب على تضحياتهم المتكررة من أجل مصر.

وبحلول السبعينيات ومع تراكم الفيضان لسبع سنوات وراء السد، كانت معظم بيوت النوبة قد غرقت تحت البحيرة الجديدة، وذابت فى مياه النيل العظيم.

النوبة والخيال

تستدعى النوبة كماً هائلاً من الخيال ... مساحة واسعة يقف فيها المبدع حائراً، لا يعرف من أين ينهل ويعب، فالمتاح غزير فياض بينما لا يملك هو سوى وعائه المحدود .. هل يكتفى برشفات منعشة متفرقة؟ أم يجلس بهدوء ويتأمل ريثما تتغلغل روح النوبة عبر مسام أحاسيسه لتستقر فى عمق الوجدان ..... فى النوبة خلقت العلاقة بين الإنسان والمكان حالة فريدة. فالنوبى كائن نيلى بطبعه، يسكن بحذى النهر ويتعمد بمائة وليداً، ويلعب ويسبح عارياً مع رفقاءه الصبية وهو يكبر ليصبح رجلاً فيذهب مع أصدقاءه ليغتسل يوم عرسه ... والمرأة النوبية تذهب إلى النهر كل يوم لتستقى من مياهه وتملأ الأزيرة، وطالما قامت برى شريط الأرض الأخضر فى غياب الرجال وهجرتهم المستمرة إلى الشمال ... وبذلك يكون النيل هو مصدر الحياة وشريانها الرئيسى فى بلاد النوبة ولكنه صار أيضاً خطراً حقيقياً على الحياة نفسها عندما واصل إرتفاعاته الجنونية، حتى غمر كل شئ بعد بناء السد العالى ... يغنى النوبى للنيل ويقول له يامصدر الحياة كيف طاوعتك نفسك أن تدمرها؟! كيف يامن تهبنا الماء والغذاء، وتلطف سياط الشمس الحارقة فى الصيف القائظ .. كيف صرت مصدر تعاستنا حتى هجرنا البيوت والحقول وقبور الأجداد ... كل شئ ابتلعته ولم نستطيع أن نقف أمامك .. لقد ألهمت النوبة الأدباء والفنانين بمعين لا ينضب من الإيحاءات والقصص بل وحالات النشوة والتصالح مع النفس، وأحياناً الغموض الصامت يلفه الحنين للماضى والصراع مع طبيعة قاسية وجميلة فى الوقت ذاته .. النوبة هى مشهد مفتوح بألوان السماء الصافية، وأشكال الصخور اللامعة بين أشجار النخيل الباسقة .. لا تحرك ساكناً ولا تدعى ما ليس بها ولها .. بينما يتحرك الشخوص أمام هذه الخلفية الرائعة فى رشاقة وكبرياء .. أناس طيبين ذوى بشرة سمراء وملامح دقيقة، وجوه لوحتها الشمس وأجساد نحيلة تعيش على الكفاف وترتدى الجلابيب البيضاء والعمم الكبيرة .. فتيات يحملن الماء ويرقصن على إيقاع دفقات مويجات النيل القصيرة فى خفة وسرعة .. "جرجار" داكن هفهاف، يشف عن جلباب مزركش يحمل الورود الحمراء الكبيرة ويحتفل بالطبيعة وحب الأرض والنيل.

وفى فيلم "النيل والحياة" للمخرج الكبير يوسف شاهين والذى ظل حبيس العلب لأكثر من أربعين سنة، يستلهم الفنان روح النوبة فى صراعها الحتمى مع واقع جديد .. وفى حوار بسيط يكشف شاهين عن دواخل النوبيين أبان التهجير..

- فى كوم أمبو ح يكون فيه ترعة واسعة وح يكون فيه وحدة صحية فى كل قرية وح يكون....
- ح يكون ... ح ... ح أنا عمرى ٩٢سنة ما رحتش للدكتور ولا مرة واحدة.
- عم عثمان لما جاله مغص مات والدكتور لسه جاى فى وسط النيل.
- عمك عثمان مات علشان ربنا عاوز يموته ... طب ح نعمل إيه فى عم عثمان والميتين بتوعنا؟!

إلى الأبد .. الكل ينزل إلى النيل حيث يتم تحميل المراكب... إلا شخص واحد يلتزم السكون ويتابع المشهد فى رفض تام .. ولسان حاله يقول "ماتصدقوش أن النيل ح يغرق النوبة .. دى بقالها خمس آلاف سنة .. مستحيل لا يمكن"!!

وفى مشاهد شديدة العذوبة ينقل لنا شاهين أحداث التهجير حيث يختار منطقة الشلال الأول مسرحاً لأبطاله ... جموع غافرة من رجال ونساء وأطفال .. تحمل المتاع والحيونات وكل غالى ونفيس ... يتحركون إلى الفلايك وكأن على رؤوسهم الطير ... وكلنا نعلم أن مراكب التهجير لم تكن بأشرعة بل بمواتير ولكنها حرية الفنان أمام الشاشة البيضاء ... ومن وحى رؤية الأستاذ جاءت فكرة لوحة قصيدة التهجير على أرضية خشنة مثل هضاب الكنوز .... رسمت النوبيين فى حالة عدم التصديق بين الوعود بأرض الأحلام وواقع فراق الوطن الغالى

Poem of Migration
50 X 70 cm, Oil on wood

قصيدة التهجير
٥٠ X ٧٠ سم، زيت على خشب

البيت النوبى

تعكس بيوت النوبة شخصية ساكنيها الطيبة المفتوحة على الناس والطبيعة كما تحمل فى تصميماتها تراكمات حضارية من أيام الفراعنة والبطالمة على الرغم من اعتمادها على الطوب النى كخامة البناء الأساسية...

سألت الكاتب النوبى / حسن نور عن التخطيط العام للبيت النوبى الأصيل فقال: يقام البيت على مساحة كبيرة حوالى ٥٠٠ متر مربع .. على شكل مربع او مستطيل وله بوابتين، بوابة رئيسية مطلة على نهر النيل وأخرى خلفية تواجه الجبل يدخل منها الحريم والبهائم .أما البوابة الكبيرة فيدخل منها الرجال وضيوفهم وأول حجرة بجوارها هى المضيفة و هى تقوم بوظيفة الصالون لاستقبال الضيوف. أما المندرة فيفصلها عن الحوش السماوى خمسة أبواب هلالية وهى دائماً فى الموقع البحرى لكى تخفف من حدة الحرارة عندما يستريح بها أهل البيت بعد رجوعهم من العمل بالحقل ... والمندرة هى صالة كبيرة بها أبراش وعنجريبات (أى سرير من الخوص) للاستلقاء وقت القيلولة ... وهناك الفرن فى حجرة صغيرة على الجانب الأيمن ... وفى المواجهة نجد حوالى أربع حجرات منها حجرات نوم مزينة بالأكراج (أطباق الخوص الملونة) والأبراش (الحصير) وبعض الشعاليق الملونة للزينة .. وهناك أيضاً المزيرة حيث مكان المياه التى تجلبها النساء من النيل فى صفائح وتفرغها فى أزيار لترطيبها وتنقيتها..

ولقد شاهدت فى قرية غرب أسوان ما يشبه القفص المعلق، وعلمت انه لحفظ الطعام وإبعاده عن الحشرات والقوارض حيث لم توجد بالنوبة القديمة الثلاجة أو الثلاجة ... كما أن بكل منزل ركن خاص بالماشية وآخر خاص بالدواجن، وكان لها مداخل خاصة غير المدخل الرئيسى للبيت وهناك فرق أساسى بين معمار المنزل فى قري الكنوز والفاديجا، فنظراً لندرة النخيل فى شمال النوبة خاصة بعد التعلية الثانية للخزان فإن الأسقف كانت مصنوعة أيضاً من الطوب اللبن فى شكل قباب أو أسقف إسطوانية مما يلطف حرارة الجو بالداخل .. أما الأسقف فى منازل الفاديجا فكانت غالباً من فلايق النخيل.

أما عن النقوش والرسوم فى النوبة فقد تميزت بالألوان الزاهية فى قرى الكنوز وذلك حتى تضفى البهجة على الطبيعة الحجرية القاسية لأرضهم الصخرية الوعرة .. وكانت عادةً ما تقوم فتاة موهوبة برسم الطيور وباقات الزهور وبعض الحيوانات والنقوش الهندسية على واجهة المنزل .. وتتبرع بتزيين بيوت الجيران أيضاً ... أما عن رسوم الحج والكعبة وكيفية الوصول للأراضى الحجازية فكان يقوم بها فنان محترف نظراً لما تحتاجه من تفاصيل وألوان لا توجد عادةً فى البيئة الطبيعية المحيطة بالقرية.

وهناك نوع آخر من النقوش البارزة والتى استخدمت أطباق صينى

House Entrance
50 X 70 cm, Oil on canvas

في مدخل البيت
٥٠ X ٧٠ سم، زيت على قماش

البيضاء كمراكز دوائر ثم نجد ان الفنان يحيطها بأشكال مثلثات ودوائر وخطوط زجزاجية بارزة تتحاور مع الجزء الغائر فى تباين يخلق حالة جمالية لها طابع خاص. ولقد تناولت الباحثة "ماريان ونزل" تاريخ زخارف المنزل النوبى فى القري المحيطة بوادى حلفا فى كتابها حيث اكتشفت أن فنانا واحدا وهو احمد بتول من بلانة هو الذى نزح جنوبا وابتكر طريقة الزخرفة بالنحت البارز ثم خلفه فى ذات الصنعة حسن عربى من السوادن وأيضاً داوود عثمان .. وللأسف قد اختفت نهائياً هذه البيوت الجميلة تحت ماء البحيرة ولم تتبقى لنا غير الصور شاهدة على فن رحل وولى فى غياهب النسيان....

غير ان المعمار النوبى لا يزال باقيا فى قرى أسوان مثل غرب سهيل وغرب أسوان وما يجاورها من النجوع وكثيراً ما يزور السياح بيوت الأهالى حيث يجلسون فى الحوش السماوى ليستمعوا الى قصة النوبيين ونبذة عن لغتهم وعاداتهم وتاريخهم .. ويوجد أيضاً ما يسمى بالبيت النوبى فوق ربوة مطلة على الشلال الأول وأيضاً فى حديقة متحف النوبة بأسوان ... ولكى تستمتع بحالة نوبية متكاملة فيمكنك زيارة البيت النوبى بأبى سمبل السياحى حيث يقدمون أكلات نوبية ورقص نوبى أصيل كما توجد مكتبة بمختلف اللغات عن تاريخ النوبة ويحمل هذا المكان اسم "إسكاليه" اى الساقية بلغة النوبة ويشرف عليه الفنان الأصيل "فكرى كاشف" الذى تربى فى أبى سمبل القديمة ويحتفظ بجذوره فى أرضها الحبيبة وهنا لا يجب ان نغفل التأثر الكبير فى إبداعات المهندس النابغة حسن فتحى بالمعمار النوبى والذى بدأ برحلته فى بلاد النوبة القديمة فوق مركب كان يحمل نخبة من فنانى مصر ومصوريها ليسجلوا بريشتهم وعدساتهم كل تفصيلة فى النوبة قبل ان تغرقها مياه البحيرة ... وقد ذكر لى الدكتور ثروت عكاشة انه كان قد أوكل الاشراف على الرحلة للمهندس حسن فتحى والذى بهر ببساطة التصميم فى البيوت النوبية واجتمع بشيوخ البنائين هناك لكى يطلعوه على اسرار استغلال الخامات المتاحة لصنع قوالب طوب طينى يحتمل الحرارة ويرطب الداخل كما أطلعوه على كيفية بناء الأسقف القبابية الاسطوانية التى الهمت ابداعاته التالية فى القرنة (غرب الأقصر) وقرية واحة باريس بالخارجة .. وقد تعرض حسن فتحى لذلك فى كتابه "عمارة الفقراء" وهو من إصدار مؤسسة اخبار اليوم وترجمة د. مصطفى فهمى.

طقوس الزواج فى النـوبة

تعتبر عادات وتقاليد الزواج النوبى من صميم الحياة فى النوبة وكان الزواج يتم بين أبناء العموم لحفظ ميراث الأرض والنخيل والسواقى داخل العائلة ... وكان الاتفاق بين عائلة العريس والعروس يتم وهما صغار قبل سن البلوغ .. أما الزواج فكان مبكراً أى أن العريس فى حوالى السابعة عشرة والعروس بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة سنة ... وتبدأ المراسم بزيارة أقارب العريس لأسرة العروس للأتفاق المبدئى على المهر وقراءة الفاتحة وتسمى "فرجار" ولايذهب العريس مع أهله وعندما يتم إعلان الخطبة تذبح الذبائح ويشارك أهل النجوع القريبة فى الاحتفال وتبدأ الاحتفالات الرسمية قبل الزفاف باسبوعين وتقدم كل نساء القرية يد المعونة فى الإعداد والطهى والخبيز والطبيخ والمساهمة بالسكر والشاى والأطباق .. الخ فيما يعرف باسم "الكاريه" وهو سلف ودين خاص بمثل هذه المناسبات ...حتى تأتى الليلة السابقة ليوم الزفاف وهى ليلة الحنة ويسمونها "كوفريه ديبى".. وفيها يجتمع أصدقاء العريس فى بيته وهو يلتفون حوله ويقومون بتخضيب جسده بالحناء وهو يرتدى جلباباً قديما على عريه ويشارك اصدقاءه فى دهان اجزاء جسمه حيث تكسبه هذه الطقوس نوعاً من الطهارة والحماية من العين ....

طبق التمر
٢٨X٢٨ سم، جواش على كارتون

Date Plate
28X38 cm, Gouache on cardboard

ثم يجلس العريس كالسلطان وسط اثنين من "وزراءه" اى اصدقاءه المقربين (حيث يحمل احدهم سوطاً والاخر سيفاً) وهنا يأتى الأقارب والجيران لدفع النقوط حيث يقومون بدفع مبالغ من المال الى وكيل العريس (والده او اخيه) ويتم تدوين كل شئ فى كراس حتى يتمكن العريس من الرد بالمثل فى مناسبات لاحقة .... بعد ذلك يقوم الجميع بالرقص على إيقاع الدفوف .. وفى نفس الوقت تتم مراسم ليلة الحنة فى بيت العروس حيث تلتف حولها النسوة من الأقارب والجيران ويخضبونها واخواتها بالحناء ويشترك الجميع فى المزاح والرقص الغناء وتناول الفشار والحلوى .. وكان من المألوف فى النوبة القديمة ان يتوجه العريس والعروس فى موكبين منفصلين لزيارة أضرحة الجدود والأولياء المباركين.

اما فى صباح يوم الزفاف نفسه فيتوجه العريس مع اصدقاءه الى النيل حيث يخلع ثيابه ويعطيها لوزيره و يقفز عاريا ليستحم بماء النيل وسط تهليل الشباب ومداعباتهم ثم يخرج ويرتدى ثياباً جديدة من جلباب أبيض وقفطان حرير ولاسة وعمة بيضاء كبيرة ويتوجه لمنزله على ظهر جمل او حمار حيث يقرأ شيخ الكتاب القرآن الكريم وبعض الادعية ثم يتوجه الموكب الى بيت العروس لعقد القران وينوب عن العروس والدها أو ولى أمرها كوكيل عنها ثم يقدم العريس المهر والذهب مثل قصة النور وجكد وشيش اما الخلخال فلا يقدم الا فى الصباحية حيث يعتبر قدم المرأة عورة كما يقدم العريس كيس به ملابس جديدة لعروسه ...اما العروس فيجب ان تتكفل بالأوانى وكل اطباق الخوص والأبراش التى ستزين حجرة النوم وطقم الصينى ...ثم تنطلق الزغاريد ويتناول الجميع طعام العشاء فى منزل العروس ... بعدها فقط يمكن للعريس ان يرى عروسه فى صحبة والدته واهل العروس ويرفع "الشجه" التى تغطى وجهها وتكون هذه أول مرة يرى فيها وجه عروسه ثم يعود لأصدقاءه ويستمرون فى الرقص والغناء وكذلك العروس ثم يدخل العريس الى عروسه ويبدأ طقس "فتح الفم" فيسال العريس عروسه اسئلة كثيرة بينما هى تتمنع وتظل صامتة فيعطيها بعض النقود ليغريها بالاستجابة فلا ترضى وتستمر لعبة المساومة حتى ينجح فى اغراءها بالمال او يفعل حركة مرعبة فتصرخ وعندئذ يكون قد نجح ويجب عليها ان تكشف وجهها ويمتنع هو عن دفع أى مبلغ اخر و فى الصباحية كان اهل العروس يقدمون طعام الفطور للعريس فى صورة لبن وشعرية بالسكر والسمن وتذكر التقاليد القديمة انهم كانوا ايضا يذبحون ذبيحة ويوزعونها على الضيوف الذين يأتون للتهنئة ... وتستمر الطقوس حتى اليوم السابع "السبوع" الذى هو بمثابة النهاية الرسمية لطقوس الزواج .. وكان العريس يقيم فى بيت العروس لمدة ٤٠ يوما ..اكلاً شارباً حتى يتم إعداد منزل الزوجية الذى ينتقلون للعيش فيه بعد ذلك.

المعتقدات و الممارسات الشعبية في النوبة

تعرضنا لجانب من الحياة الشعبية النوبية فيما سبق عرضه من وصف للبيت النوبي و ملحقاته وأيضا طقوس الزواج عند أهل النوبة ولكن هناك المزيد من مظاهر الحياة في النوبة القديمة لعادات وتقاليد كادت تندثر بفعل الابتعاد عن نهر النيل في موطن التهجير. وغياب أجيال كاملة انتقلت الي رحمة الله فغاب معها للأسف الكثير من التراث الشعبي الشفاهي الذي تم تسجيل بعضه من قبل الباحثين النشطاء في مجالات الأنثروبولوجيا و الفنون الشعبية، بينما ذهب الكثير في غياهب النسيان.

ففي بلاد الكنوز والفاديجا انتشرت الموالد والاحتفالات الدينية وكان الجميع ينتظرونها بفارغ الصبر حيث أنها فرصة للقاء بين الاحباء وأيضاً للغناء والرقص وارتداء الملابس الملونة الجديدة والترحال في مراكب نيلية تحمل الأهل والأصدقاء.. وتتميز قري الكنوز بصفة خاصة بوجود مزارات دينية كثيرة نذكر منها مقام الشيخ بحر بقرية أميركاب وأيضاً احتفالات الأبهوريين بمولد الشيخ أبو ضيف وفقير محمود والشيخ عمر بالشرق... وفي قرية مرواو يوجد مقام أبو عاشة بشرق النيل حيث تقام ليلة المولد بمنتصف شعبان.. أما قرية جرف حسين فاشتهرت بالقباب الخمسة حيث كان يقام مولد هناك ويخرج موكب الجمال من "فقير دب" إلي الشيخة أم رايد في الجبل، وقد أعيد بناء القباب الخمسة في

Supplication
55 X 65 cm, Watercolors

"الدعاء"
٥٥ X٦٥ سم، ألوان مائية

جرف حسين الجديدة بالتهجير .... وهناك أيضاً مقام ضريح الشيخ "فضلون" بقريه كشتمنه .. أما قرية السيالة فيقام بها مولد الشيخة أم رايد في شهر يناير، بالإضافة إلي الاحتفال بليلة نصف شعبان في مقام الشيخ جوهر التكروري في غرب النيل. وبقرية دهميت وحدها يوجد أكثر من مائه مقام أهمها اقيم لتخليد ذكري الحسن والحسين ....أما قري عرب العقيلات فلم يكن بها الكثير من المقامات باستثناء شاترمة والتي كان بها ضريح الشيخ حسن في نجع الجزيرة والشيخ الأشول بجوار المدرسة وضريح الشيخ أب باتار في أعلي قمة الجبل..

أما القري الفاديجا في الجنوب فلم تكن تربة خصبة للحياة الشعبية الدينية كما في الكنوز، باستثناء قرية الجنينة والشباك والتي كثرت بها الموالد، مثل مولد سيدي كبير والشيخ عبدالله وسيدي حسن ابو جلابية .. أما قرية قسطل فكان يوجد بها ضريح الشيخ عيسي في نجع علاقي وعلي مقربة منه كنيسة مهجورة بها جرس كبير.... وكان بكل مقام "نقيب"يشرف عليه ويجمع النذور ويوزعها علي الفقراء.

علي أن المعتقد الشعبي النوبى يتمسك بالتقاليد الموروثة التي تؤكد التأثر بالتراكمات الحضارية مثل طقس معمودية الطفل في ماء النهر ورشم الصليب علي جبهتة تأثراً بالمسيحية التي سادت النوبة لمدة سبعة قرون أو أكثر... أو صنع قفص من الخوص واطلاقه في النيل مثل قصة موسي علي سبيل الفدية ثم تنثر العصيدة علي سطح المياه لإطعام ناس النهر... هناك أيضاً معتقد التبرك بالشهر العربي الجديد حيث تخرج النساء بالدعاء للأقارب قائلات "هل هلالك"، "شهر مبارك" وذلك له علاقة بالاعتقاد في المشاهرة أي عدم الخروج بالوليد الجديد قبل اكتمال الشهر العربي حتى لا تصيبه عين الحسود، والنوبيون بصفة عامة يعتقدون في الحسد وقوة تأثيره لذلك فإنهم يصنعون الأحجبة ويعلقونها علي صدور الأولاد والبنات وكانت الأحجبة عادةً ما تحتوي علي ملح، وفلفل وكمون وأظافر اليدين... بالإضافة الي تعليق خمسة وخميسة ذهبية علي جبين الطفل. وهنا يجب التنويه أن رسم الديك والتمساح والعقرب علي المنزل من خارج كان أيضاً لدرء العين الحاسدة، بينما يرمز النخيل وقصرية الزرع والسمك إلي الخير والوفرة.

انتشر الزار أيضاً في النوبة وكان بمثابة الملاذ الأخير إذا لم تنفع طرق العلاج والأحجبة وصفد الدم في جلب الشفاء.... وهناك أيضاً طقوس الحداد عند الوفاة، وكانت فترة الحداد أربعين يوماً كاملة وكان الأقارب والجيران يأتون من كل النجوع المجاورة وأحياناً من القاهرة والإسكندرية لتقديم واجب العزاء.. ومن يمتنع عن ذلك دون سبب وجيه فالقطيعة تكون نصيبه وعند زيارة الأهل للقبر كانوا يملأون الإناء الفخاري بالماء ويلقون الحصي الصغير علي القبر... والرجال من الأقارب يرخون طرف العمامة الأيسر علامة الحزن، أما أرملة المتوفي فترتدي السواد لمدة ثلاثة أعوام أو طيلة حياتها.

الفنون فى بلاد النوبة

الرقة ورهافة الحس مع عشق الطبيعة والتغنى بجمالها، كل هذا وأكثر قد ساهم بلا شك فى تشكيل الشخصية النوبية والتى صارت بفضل التحامها الوثيق بالطبيعة شخصية مبدعة بطبيعتها، فالنوبى يغنى لكل شئ. للنيل وشمس الصباح وحبه لأمه وأهله ... حتى خوفه من حماته! وأتذكر هنا جلسة الونسة التى استمتعت بها كثيراً فى النادى الكنزى العام بالإسكندرية حيث طربنا لغناء الفنان عبده الصغير وهو يغنى أغنية يسأل فيها الناس أن يحكموا بينه وبين حماته... وكانت باللغة الكنزية مع وجود ترجمة..! كما أذكر جولة بمركب صغير فى سهيل مع محمد، الشاب النوبى الذى أخذ يغنى للشمس وهى تشرق خلف الجزيرة وملامحه تحمل انفعالاً عاطفياً صادقاً .. كانت حالة إبداعية مركزها تصالح الإنسان مع الطبيعة.

والمرأة النوبية تتعلم مهارة الصناعات اليدوية باستخدام الخوص وحبال النخيل كخامة أساسية لإبداعتها ... فكل أسرة نوبية تحتفظ بالكرج الذى هو طبق الخوص المزخرف الذى يزين حجرة النوم، ويستغرق إعداده بشكل جيد عدة أسابيع للطبق الواحد وتظهر فى صناعته مهارة يدوية فائقة تتميز عن صناعة الخوص فى بقية أنحاء مصر .. أما الطبق الأكبر قليلا والذى يستخدمونه فى تغطية صوانى الطعام فيطلق ليه إسم "شور" ... ولحفظ الحبوب والغلة يستخدمون ما يشبه المشنة وهو أكثر عمقاً ويطلق عليه اسم "كونتيه"... هذا عن فنون أطباق الخوص ... أما عن صناعة الحلى فى النوبة فقد اهتم النوبيون بأشغال الذهب والفضة ويظهر ذلك فى زينة العروس وصديقاتها فى الفرح النوبى فكانوا يزينون الرأس بـ"راسن" أو "شيالة" وكانت توضع على الرأس ثم تنقسم لقسمين تتدلى على الجانبين، أما الـ"صفة" فكانت عقد يربط حول الرقبة وأيضاً "نقار" وهو عقد من أقراص ذهبية .. والـ"بيق" كان عقد من الخرز مع الذهب .. ولتجميل الأذن هناك حلق كبير يسمى "بلتاوى" وأيضاً "تميم" وكان يشبك فى غضروف الأذن من أعلى والمرأة النوبية تجمل أنفها بقطعة ذهبية تسمى "جاكد" أو "بصمة" والمرأة المتزوجة تزين جبهتها بـ"قصة الرحمن" وهى على شكل مثلث من الذهب قاعدته إلى أسفل. أما الخلخال فهو من الفضة وبه أهرامات مدببة تعطيه شكلاً مزخرفاً وتزيد من وزنه.

بالإضافة إلى ذلك أتقن النوبيين أعمال النجارة فصنعوا "العنجريب" دون دق أى مسمار به وقاموا بزخرفة المزلاج الخشبى بزخارف دقيقة مبهرة لا تزال تشهد عن مهارة فائقة فى المشغولات الخشبية وقد عرضنا سابقاً لزخارف ورسوم المنازل بألوانها المتناسقة ومدلولاتها الرمزية الشعبية .

أما عن الموسيقى فى بلاد النوبة، فهناك أغانى خاصة بكل مناسبة تتناقلها الأجيال المتعاقبة .. مثل مناسيات الميلاد والسبوع والختان

والأعياد وليلة الحناء والزفاف والصباحية ... إلخ .. والى وقت قريب التزمت الموسيقى النوبية بالسلم الخماسى حتى انفتحت على الموسيقى العربية وظهرت مؤثرات ساهمت فى تطويرها وتقريبها للمستمع المصرى فى الشمال وقد بدأ ذلك الفنان أحمد منيب وتلاه الفنان محمد منير ويتميز الغناء النوبى بالمشاركة فى الترديد بين الغناء المنفرد والمجموعات والإيقاعات المتنوعة التى يضبطها الدف (الطار) وهو أساسى ومحورى للغناء الجماعى مع التصفيق بالأيدى فى إيقاعات معقدة نسبياً وهى سمة للموسيقى الأفريقية بصفة عامة ... أما "الطنبور" فهو آلة وترية ذات خمسة أوتار تشبه السمسية ويخرج الصوت عن طريق نبر الوتر بالإصبع أو الريشة .. ولقد استمتعت بالأغنية النوبية الأصيلة بصوت الفنان متعدد المواهب "فكرى كاشف" من أبو سمبل وقد قام بتسجيل هذا التراث بباريس ليظل شاهداً على على الروح النوبية فى منطقة الفاديجا ولا يجب أن نغفل الفنان على كوبان والذى استخدم الآلات العصرية فى التوزيع الموسيقى وأيضاً المغنى وعازف العود القدير "حمزة علاء الدين" والذى نستشف نزعته التصوفية فى أغانيه والذى تأثر به ابن اخته الصديق «كرم مراد» والذى لا يزال يحمل الشعلة بعد وفاة خاله ليقدم حنين المشاعر الدافئة فى النوبة بصوته الرخيم.

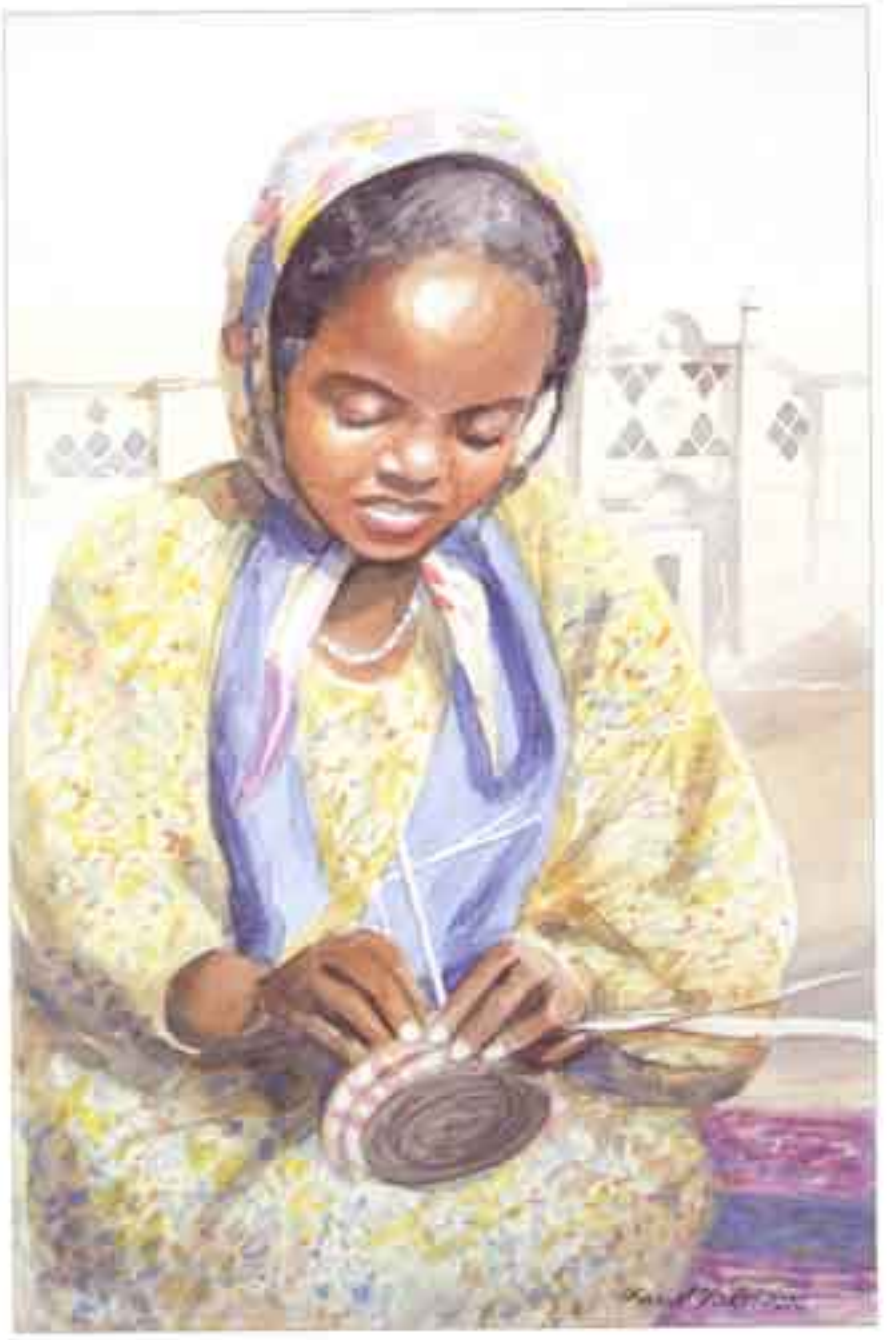

The Karag Maker
45 X 60 cm, Watercolors

صانعة الكرج
٤٥X٦٠ سم، ألوان مائية

All colors of Konooz
60 X 80 cm, Oil on canvas

كل إلوان الكنوز
٦٠X٨٠ سم، زيت على قماش

Nubian young man
50 X 61 cm, Oil on canvas

شاب نوبى
٥٠X٦١ سم، زيت على قماش

من يوميات رحالة فى بلاد النوبة (٢٠٠٩ – ٢٠١٠)

سألت نفسى هل أستطيع أن أسافر الآن عبر بلاد النوبة القديمة؟ وكانت الإجابة المنطقية اذا ما غرقت البلاد تحت الماء فلنبحر فوقها ونستشعر أنفاسها تحت سفينتنا..

حجزت غرفتى فى إحدى مراكب بحيرة ناصر وبدأت رحلتنا بزيارة لمعبدى أبو سمبل .. لم أكن قد زرته من قبل وبالطبع تركت ضخامة التماثيل الأربعة بواجهة المعبد الكبير أثراً كبيراً فى نفسى. وكانت الشمس تداعب وجوه رمسيس الثلاثة وتودعها وهى تمضى الى خدرها فى الغرب خلف القبة الصناعية الضخمة التى تقنعك بأنها صخرة من صنع الطبيعة، دخلت الى بهو المعبد والقيت التحية على "عم عوض" الحارس والثمانية تماثيل الأوزيرية للملك ثم تقدمت داخلاً لقدس الأقداس والذى تدخله أشعة الشمس المشرقة مرتين وقت التعامد فى ٢١ فبراير و٢١ اكتوبر ويختلف الأثريون حول المناسبات الملكيةالتى توافق هذين التاريخين، ولكن يجتمع الآف السياح كل ستة أشهر لمشاهدة هذه الظاهرة الفريدة، ولكننى اكره الزحام، وبعقلية الفنان أستطيع أن أتخيل المشهد!

جلست أمام المعبد لأرسم الواجهة كاملة فى ظلال ما بعد الظهيرة، ثم

إبتسامة حتحور – معبد أبو سمبل
٣٠X٤٠ سم، رسم بالأقلام الملونة

Smile of Hathor - Temple of Abu Simbel
30X40 cm, Drawing

Temple Façade - Abu Simbel
30X40 cm, Drawing

واجهة المعبد - معبد أبو سمبل
٣٠X٤٠ سم، رسم بالأقلام الملونة

تقدمت الى معبد نفرتارى الذى بناه الملك ليخلد حبه لزوجته المحبوبة وهو لعبادة الإلهة حتحور وأحببت الواجهة المائلة قليلاً للخلف والتى تعطى إحساساً بالصرحية والمهابة كما أعجبتنى الأعمدة الحتحورية والتى تختلف عن مثيلاتها فى معبد دندرة وفيلة والدير البحرى لأن النحت فى أحجار النوبة ليس سهلاً فجاءت وجوه حتحور مسطحة ولها ضفيرتين طويلتين نسبيا مما يعطيها شكلا حداثيا لا نراه فى المعابد الاخرى.

وعندما غابت الشمس خرجنا جميعا من المعبد ... ثم دخلنا ثانية لنشاهد عرض الصوت والضوء والذى جاء رائعاً فى جو هادئ لا تعكر صفوه ضوضاء او رياح .. فعشنا فى زمن رمسيس نتخيل موكبه واحتفالاته فى هذه البقعة الفريدة .. وتذكرت لوحات صديقى العزيز الفنان حسين بيكار والذى سجل ملحمة بناء معبدى أبى سمبل فى لوحات ملونة تخلب الالباب، وكأنه شاهد عيان على عصر ولى ورحل ونستطيع أن نرى المجموعة كاملة فى متحف الجونة بعد أن نجح المهندس سميح ساويرس فى استرجاعها مرة اخرى لأرض الكنانة.

فى الفجر تتحرك بنا السفينة لنلقى نظرة الوداع على أبو سمبل وشمس الصباح تصحو لتداعب الوجوه فى لطف وتفاؤل ... ثم نبحر شمالاً مع اتجاه التيار وتتسع البحيرة بينما تطل عليها جبال النوبة من الناحيتين

.. وبعد حوالى ساعتين اقتربنا من ابريم ...
اعترتنى الدهشة حين علمت ان قصر ابريم هو الأثر الوحيد الذى لم يحتاج لانقاذ اليونسكو حتى بعد ارتفاع المياه خلف السد لأن القلعة فوق أعلى منسوب للمياه .... وصارت التلة جزيرة بعد ان حوطتها المياه من كل جانب .. لم يسمح لنا بالنزول للجزيرة ولكننى تاملت طائرين جارحين جاثمين فوق الأقواس الهلالية لبقايا الكاتدرائية والتى يرجع تاريخها الى القرن الثامن الميلادى وعلمت ان ابريم كانت مركزا تجاريا وصناعياً نشطاً وبها آثار من أيام تحتمس الثالث والملك طهرقا وبعدها كانت مسرحاً للقتال بين الرومان وكنداكة ملكة الحبشة وظلت لقرون مركزاً آخر لعبادة إيزيس ثم تحولت النوبة للإسلام وأثناء الحكم العثمانى كانت ابريم وقلعتها مركزا للكُشاف وأقامت بها حامية من البوسنة يقال أن محمد على نسيها هناك فاستقر العسكر وتزاوجوا من نوبيات .. وقبل بناء السد كانت قرية ابريم تنتج اجود البلح النوبى والذى يطلق عليه البلح الإبريمى وقد استفادت القرية من مشاريع الرى بعد التعلية الثانية وأيضاً من قربها لقرية عنيبة التى صارت عاصمة جنوب النوبة .... وخرج من ابريم كثير من القادة والنبغاء منهم الفنان القدير النحات أحمد عثمان رئيس قسم النحت بكلية الفنون الجميلة وصاحب واجهات حديقة حيوان الجيزة وأيضاً صاحب فكرة تقطيع معبد أبو سمبل بأستخدام المنشار ونقله الى منسوب اعلى.

ودعنا ابريم الوحيدة و سط المياه وابحرنا فى اتجاه المحطة التالية وهو موقع عمدا الجديد حيث يمكن للزائر أن يشاهد معبدى عمدا والدر ومقبرة بينوت ... تقف السفينة قريباً من الشاطى ثم تنقلنا اللنشات على دفعات الى حيث المعابد...

معبد عمدا يقف وحيداً حيث يبدو كمبنى مهجور له بوابة واحدة، وهو أقدم المعابد على بحيرة ناصر وقد تم إنقاذه بمعجزة هندسية حيث تم فك الجزء الأمامى منه ونقله كأحجار، أما الحجرات الداخلية فقد تم رفعها هيدروليكياً ككتلة واحدة تم سحبها على قضبان سكة حديدية لمسافة ٢,٦ كم أعلى الهضبة، حيث تكون فى أمان من مياه السد العالى وكان المعبد يتحرك بمعدل ٢٥ متراً يومياً وأشرف على نقله البعثة الأثرية الفرنسية ... وقد كرس لعباده الإله امون رع ورع حور اختى لانه الحارس الجنوبى وبدأ بناءه الملك تحتمس الثالث واكمل فى عهد الملك تحتمس الرابع حفيده .. وداخل البوابة الى اليسار يوجد نص هام كتب فى عصر مرنتباح ابن رمسيس الثانى وهو نص إعادة افتتاح المعبد بعد أن اغلقه اخناتون ويذكر ان المعبد تحول لكنيسة فى العصر المسيحى وكانت تعلوه قبة.

نتحرك قليلا ثم نقف امام معبد "الدر" بكسر الدال وهو مثال مصغر لمعبد أبو سمبل حيث كان أيضاً منحوتا فى الصخر وكان يقع خلف

Tree of Eternity
30 X 40 cm, Watercolors

شجرة الخلود
٣٠X٤٠ سم، ألوان مائية

قرية الدر وكانت مركزا هاماً وبها مدرسة الكمال الابتدائية وقصر الكاشف بالإضافة الى مركز الشرطة ولكن مياه السد أتت على كل ذلك وقبلها التعلية الثانية للخزان والتى أجبرت الاهالى على بناء مساكنهم ومتاجرهم على ثلاثة هضاب .. ويأتى ذكر قرية الدر كثيراً فى رواية الشمندورة لأهميتها السياسية قبل التعلية الثانية، ولكنها فقدت ذلك لصالح قرية عنيبة فيما بعد .. نرجع ثانية للمعبد الذى هو الأثر الوحيد الذى يحفظ ذكرى "الدر"... لقد أبهرتنى ألوان رسوم جدرانه التى احتفظت بنضارتها وزهوها وأروعها فى نظرى تصوير الملك رمسيس الثانى واقفا تحت شجرة الخلود بأغصانها وأوراقها الكثيفة وأمامه بتاح وسخمت وخلفه الإله تحوت إله الحكمة..

وعندما نترك معبد الدر نتجه الى مقبرة بينوت وهى ترجع الى عصر رمسيس السادس وقد أسهمت فى إنقاذها البعثة الأمريكية وهى تقع حالياً أسفل هضبة داكنة اللون تشبه أهرام، دهشور وقد سرقت معظم رسومها عدا منظرين على جانبى الحجرة الصغيرة المحفورة فى الصخر .. ويعتقد أن بينوت هذا كان حاكم واوات ومشرف على أعمال المحاجر ولا نعلم إن كان مصرياً أو نوبياً.

بعد هذه الزيارة الأخيرة يقابلك بائعى التحف والهدايا التذكارية وهم يحملون التماسيح الصغيرة التى تم تفريخها من بيض التمساح .. وقد لاحظت غلق فم التمساح بقطعة صغيرة من السلك حتى لا يقضم اصبع السائح فإنه إذا ما أغلق فكيه لا تستطيع قوة أن تفتحهما ثانية.

رجعنا للسفينة مرة أخرى وأبحرنا شمالاً والشمس تتدحرج خلف جبال النوبة والمنظر يبدو ساحراً محملاً بالقصص والأساطير عن مدن تقبع تحت الماء، تسبح بين بيوتها الأسماك وملائكة النهر.

استيقظت فى اليوم التالى على صياح الديك فقد وصلنا إلى موقع السبوعة الجديد .. كانت الشمس تتثاءب فى كسل لذيذ، بينما الصيادين يصلحون الشباك، والمجاذيف ترتطم بصفحة المياه البلورية لتنظيم إيقاع سيمفونية الصباح الجديد .. إلى جوار جزيرة فى البحيرة تناولنا طعام الإفطار بسرعة ثم حملتنا اللنشات مرة أخرى إلى موقع وادى السبوعة حيث تقبع تماثيل أبو الهول على الجانبين بينما نتوجه إلى الصرح الكبير وعلى يساره يقف تمثال رمسيس الثانى شامخاً وعندما أدخل، فإننى ألتفت إلى الخلف لأبصر أجمل منظر أحبه حالياً فى بلاد النوبة .. تماثيل أبا الهول ثم الصحراء والجمال ثم البحيرة الصافية والجبال فى خلفية المنظر .. وأتخيل نفس المنظر بعد التعلية الثانية للخزان حيث كانت تماثيل أبو الهول تغمرها المياه معظم شهور السنة وتظهر فقط كاملة زمن التحاريق .. ولقد تولت البعثة المصرية إنقاذ وترميم هذا المعبد بمساعدة مالية من أمريكا وتماثيل السفنكس

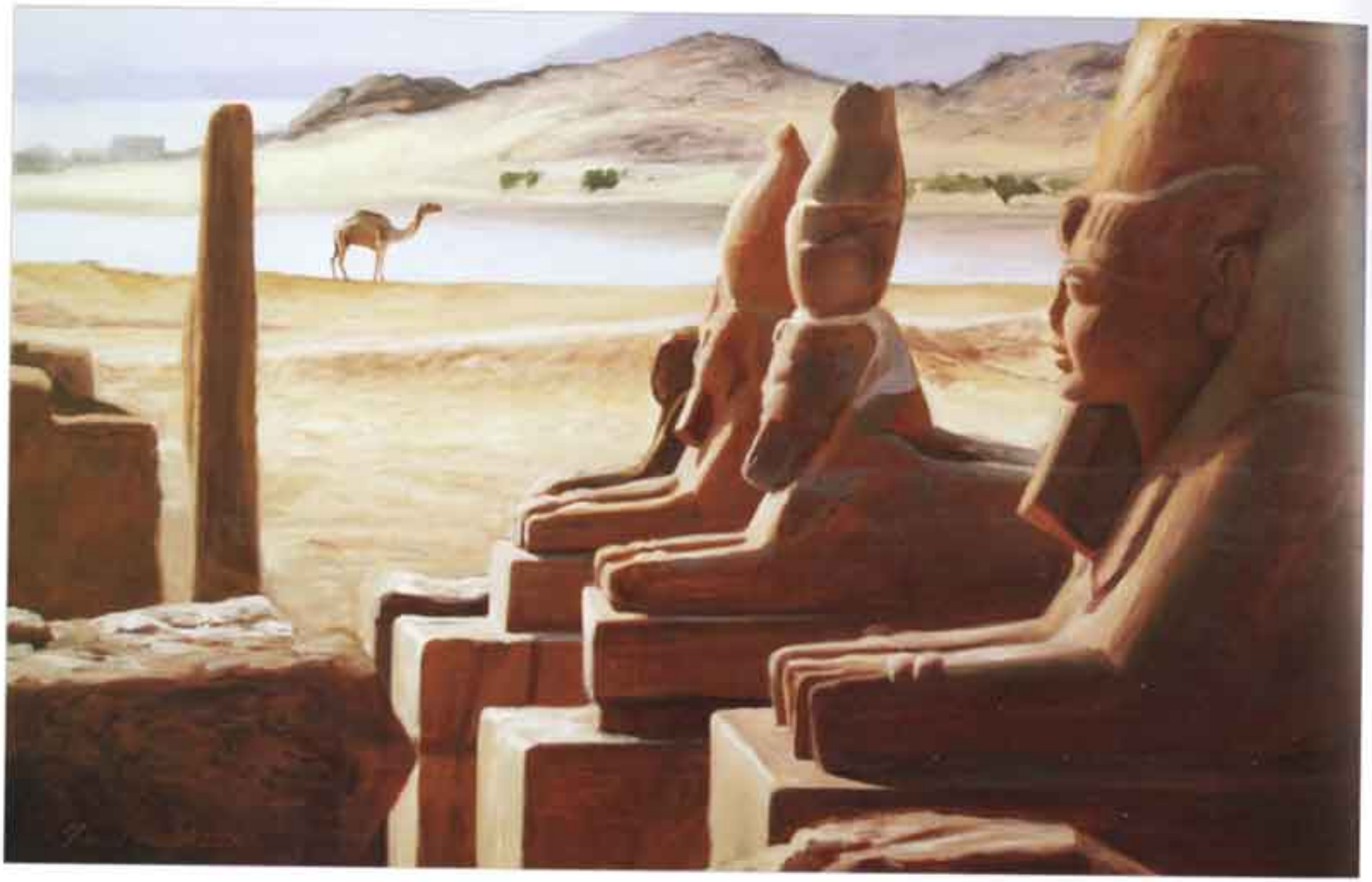

Panorama of Wadi El-Seboua
60X80 cm, Oil on canvas

بانوراما وادى السبوعة
٦٠X٨٠ سم، زيت على قماش

فى المقدمة لها رأس آدمى أما الأربعة فى الخلف لها رأس صقر (حورس) .. أما الفناء الرئيسى المفتوح فتزينه على الجانبين تماثيل أوزيرية للملك رمسيس ثم ندخل إلى صالة الأعمدة والتى استخدمت ككنيسة فى العصر المسيحى وحتى عهد قريب كانت لها بوابتين هلاليتين كمدخل تم إزالتهما فى الترميم ليرجع المعبد لشكله الأصلى ... وهناك بقايا لرسم فريسكو قديم للقديس بطرس فى قدس الأقداس وهو يحمل مفتاح ملكوت السموات وقد كان منظره كاملاً قبل النقل. بعد الزيارة امتطى جملاً هائجاً ليصعد بنا إلى موقع معبد الدكة، وهو يقع الآن على ربوة عالية .. وأهم ما يميزه هو الصرح الهائل الذى يتقدم واجهة المعبد ويذكرنا بصرح الكرنك وقد قام ببناءه الملك المروى أرجامون وكان معاصراً لحكم بطليموس الثانى والثالث فى مصر .. وبعد ذلك أضاف البطالمة أجزاء كثيرة للمعبد .. أما الرومان فقد أضافوا صالة صغيرة مقطوعة من الجدار الشرقى بها أجمل نقوش المعبد وهى تصور تحوت مثل قرد أمام تفنوت كأنثى الأسد يعلوهما منظر طائر أبو منجل المقدس وأسفلهما منظراً لأسدين هما أولاد رع شو وتفنوت.

ثم ننزل مرة أخرى لنرى المعابد فى تلك البقعة الجميلة .. معبد المحرقة .. ولقد أثار إهتمامى تهدم جدران المعبد فى صورة التقطت قبل نقله لمكانه الحالى، أما الان فيظهر كاملاً ولا نستطيع أن نرى ما بداخله من الخارج .. قام ببناء المعبد بعض كهنة الرومان أثناء العصر الرومانى وكرسوه لعبادة الإله سيرابيس وكان يقع على الحدود الجنوبية الجديدة لمصر كما رسمها الرومان .. ويتميز المعبد بأعمدته الجميلة ووجود سلم حلزونى يقود للسطح .. وقد تحول المعبد إلى كنيسة فى العصر المسيحى .. والجدير بالذكر أن بلدة المحرقة القديمة كانت تقع فى بلاد الكنوز حوالى ١٢٥ كيلومتر جنوب مدينة أسوان .. أى أن المعبد قد نقل ٥٠ كيلو متر جنوب موقعه الأصلى.

قضينا بقية اليوم فى السفينة حيث أبحرت شمالاً حتى ميناء أسوان وكان هناك حفل به رقص نوبى رحل بنا بعيداً إلى زمن النوبة وفى الصباح قمنا بزيارة آخر موقع، والذى يضم معابد كلابشة وبيت الوالى ومقصورة قرطاسى وما تبقى من معبد جرف حسين.

ولقد كنت مشتاقاً لزيارة مقصورة قرطاسى بصفة خاصة، وهى من العصر البطلمى وكانت تقع ٤٠ كيلو متر جنوب موقعها الحالى فى مكان مرتفع على هضبة صخرية، وكانت بمثابة بوابة لمنطقة محاجر الحجر الرملى بالنوبة وقد خصص المعبد لعبادة الإلهة حتحور المعبودة الرئيسية لعمال المحاجر .. وأجمل ما فى هذه المقصورة التى تتكون من صالة واحدة هى الأعمدة الحتحورية الرشيقة وأيضاً النسب الرائعة للكتل الحجرية والتى يكسبها موقعها على البحيرة جمالاً فائقاً ...

يقف معبد كلابشة الآن بجوار المقصورة حيث نصعد لصرحه الكبير عبر سلالم تكسبه مهابة واضحة .. وكان أصلاً يقع ٥٠كم جنوب موقعه الحالى ويعود تاريخه للأسرة ١٨ ولكن المعبد القديم قد تهدم وبنى مكانه المعبد الحالى، الذى أعيد بناؤه فى العصر البطلمى ولكنه أكمل بهيئته الحالية فى عصر الإمبراطور الرومانى أغسطس وقد كرس لعبادة الإله "ماندوليس" وهو إله الشمس النوبى وكان أسمه المصرى "ميلول"، وعادة يظهر بشكل رجل يرتدى تاجاً به ٤ ريشات متوجه بأقراص الشمس ... والمعبد له صرح كبير يفضى إلى فناء مفتوح به ١٤عمود ثم يؤدى إلى بهو الأعمدة ثم حجرتين تقودنا إلى قدس الأقداس ومن الممكن الصعود إلى سقف المعبد ومشاهدة مناظر رائعة بانورامية للسد العالى ومقصورة قرطاسى من أعلى .. وقد قامت البعثة الألمانية بإنقاذ معبد كلابشة ونقله إلى مكانه الحالى بجوار السد العالى .

يتبقى لنا أن نزور الجزء المتبقى من معبد جرف حسين الذى له حكاية سنذكرها فى حينها، ثم نسير عبر طريق منحنى إلى أحد معابد رمسيس الثانى المحتفظة بألوانها الزاهية ألا وهو معبد بيت الوالى وربما كان يسكنه أحد الأولياء الصالحين لذلك أطلق عليه اسم بيت "الولى"، والتى حرفت إلى الوالى .. وكان أساساً منحوتاً فى الصخر ويعد باكورة أعمال رمسيس الثانى فى بلاد النوبة، أمر ببناءه وهو أمير فى الثانية والعشرين من عمره بعد حملة ناجحة لإخماد ثورة فى بلاد النوبة ..

وتظهر الرسوم الملونة إنتصارات رمسيس على السوريين والليبيين بمصاحبة طفليه، أما قدس الأقداس فقد دمرت تماثيله عندما تحول المعبد إلى كنيسة فى العصر المسيحى.

بهذا نكون قد انتهينا من زيارة المعابد التى تم إنقاذها من الغرق بواسطة اليونسكو استجابة للنداء الذى أطلقه وزير الثقافة أنذاك الفاضل الدكتور/ ثروت عكاشة.

العمـة النوبيـة

(شعـر فريـد فاضـل)

أتطلع لبناء عمامة
ليست كأى عمامة أخرى
انها عمامة النوبة ذات الطوابق الخمس
عرفتها من بعيد و لم أزل أبحث عنها
انهم لا يبيعونها فى المحال ... ولا حتى فى سوق أسوان
حاولت وفشلت أن أجدها .....
حتى دخل ذات يوم عم علاء الدين من أدندان
عمامة وكوفيه وجلباب بألوان الباستيل .....
تحدثنا كثيراً عن البلد القديمة .....أدندان
"لو فيه جنة على الارض ح تبقى أدندان .....
يا سلام، هو فيه زى أدندان؟!"
رجـع عـم عـلاء للنوبـة الجديـدة
وبعـد شهـور مضت
جـاءنى صوتـه من بعيـد

– مش عاوز حاجة من أسوان؟
قلت: عاوز عمة نوبي كبيرة قوى،
تمام زى اللى انت لابسها.
– بس كده
وجاء عم علاء ومعه العمة
طلبت ان يعلمنى كيف البسها
كيف تلتف على نفسها
وهى تعلو فوق الرأس
فى شموخ وكبرياء
وحنين للوطن الغارق
وأهله الطيبين
العمة النوبى
هى البلد القديمة ... على راسى من فوق!

Portrait of Nubian youngman
80X120 cm, Oil on canvas

پورتریه شاب نوبی
۱۲۰X۸۰ سم، زیت علی قماش

تكنولوجيا فى أدندان

(شعر فريد فاضل)

وتدور الرحاية تطلع الطحين
ومرت حماى بتعجن العجين
ده فى بيت أبويا كنا كده قاعدين
واخواتى وامى الفرن قايدين
وجدى عمال يضرب ستين فى سبعين
قال الجوع كافر ولا انتو حاسين
إيه الحل يا جدى حقيقى مش عارفين
قال حا اجيب طاحونة لو حتى م الصين
والهوا يطير ريشها دى آخر تفانين
والقمح ح يبقى دقيق فى دقيقة ولا اتنين
راح نخلص م الوقفة والشيل والتشوين
وكله ياخد نصيبه ياعينى ع الحلوين
على فكرة دى حكاية حقيقية مش تخمين
حكاها لى صديقى الحاج علاء الدين

The Millstone
80X80 cm, Oil on canvas

حجر الرحاية
٨٠X٨٠ سم، زيت على قماش

لقاء مع الحاج / علاء الدين (قرية أدندان)

س: كيف كانت تتم عملية نقل الماء من النهر للبيوت ؟

ج: بعض قرى الفايجا كانت تبعد حوالى كيلو ونصف عن النيل مثل أدندان مثلاً .. وكانت النساء تحملن الصفائح المليئة بالماء على رؤوسهن فى عز الصيف .. ثم بدأت فكرة تحميل جراكن الماء على الركوبة .. ثم ظهر البوللى وهو مثل مستودع يملاء بالمياه وله حنفية للتفريغ فى أوانى أصغر عند الوصول للقرية (نفس فكرة عربة الجاز) ... وأحياناً كان النوبيون يستخدموا ماء الآبار، مثلاً فى العجين حيث يخلطونها بالدقيق.

س: وما هى أنواع الخبز فى النوبة ؟

ج: العيش "الكابد" وكان له تخانة وليس فى رقة العيش البلدى، وكان هناك الـ "شتى" وهو عيش مصنوع بالخميرة وكان يخبز فوق الدوكة باستخدام علبة تشبه ما يستعمله الكنفانى، أما "السلابة" فهو عيش يشبه "الرقاق" أى أنه مستدير وكبير الحجم وكان أحياناً يؤكل مع الخبز "الشتى" وبالمناسبة والدى الشيخ "حامد على" الله يرحمه كان مأذون القرية فى أدندان وهو أول من أدخل الطاحونة (أى التكنولوجيا) فى أدندان، والنوبيين يحبوا اليامية الناشفة المطحونة ويسمونها "توربية" وتدخل فى عمل "الإتر"، أما "سويد" فمعناه طبيخ ... وكثراً ما كانت النساء تقطع الطماطم حلقات وتتركها تجف فى الشمس ثم تطحنه وتستخدمه كصلصة مع البصل والخضروات.

س: ماذا عن التهجير .. هل تتذكره؟

ج: طبعاً، أنا كنت متزوج وقتها وأتذكر أنه لم تكن هناك شفافية فى التعامل ولم تكن طريقة التهجير مدروسة بالقدر الكافى .. ونظراً لانتشار الأمية بين أهالى النوبة فإنهم لم يفهموا كل ما كان مكتوب فى الورق .. يعنى إيه شمال السد وجنوب السد .. إلخ، والشباب كان فاكر إنه رايح نعيم الجنة ... ولكنها فى الواقع كانت كارثة لينا .. اكتشفنا إنها نكبة ... فقد افتقدنا الأمن والأمان، وفقدنا عاداتنا وتقاليدنا .. وبعد التهجير بدأ يخرج من بيننا نصابين وحرامية وقتالين قتلة، بالإضافة إلى التسيب الأخلاقى.

أما يوم التهجير فكان حاجة فوق الوصف .. كانت المركب تشبه "سفينة نوح" ... كلنا معاً بجوار بعضنا .. أنا ومراتى والأولاد والبقرة والحمار والبط والماعز والكلاب .. ! بالإضافة إلى معاناة كبيرة فى نقل العفش من البيوت إلى الباخرة .. الركايب كانت بالعافية بتشيل وناس كتير سابت حاجتها.

البلــد القديمــة

(شعـر فريـد فاضــل)

أقولك إيه يا جدى أقولك إيه

إحكيلى يا جدى ع البلد القديمة

الناس والبيوت والجبل والطير

ونيل عريض ونخلة عوجة ونخلة سليمة

و ساقية عمالة تدور وناس كتير

كبير ولا فقير ده كل واحد له قيمة

ونسة الليل والقمر بدر عالى

لا تقوللى راديو و لا مسرح ولا سيما

و ليلة الحنة نسهر للفجر، رقص ومزيكا

وطباق فشار وحلاوة الحاجة كريمة

دا الفرح بكره والناس زايطة إيه

والكوشة لا ناقصها زينة ولا مسمار بريمة

كف وأراجيد، وطنبورة راح تعيد

غنوتى ..... "طول عمرك يا بلدى عظيمة"

الصـــــدريـــة

(شعـر فريـد فاضـل)

الام لابنتهـا رسميـة:

قمـت م الفجريـة وناديت علـى رسـمية
يـالا قومـى والا حرمتـك م المـــــاهيـة
شوفـى البـيت كبيـر وقـدامه فســـقيـة
عايـز مسـح وتنضيف يـابت يـا شهلتيه
لـو بس عـواض مـا كانش راح الجـهادية
كان شـال علـى قلبـه الصنـاديق دهـــيه
والدنيـا كـت تبقـى حلـوة من غيـر أسية
دورت كتيـر وسـط حاجـات مستخـــبية

"صـدرية" كنـت شايـلاها لاختك بدرية
هـلال بيحضن الشمس فوق سمكة بلطية
وأهرامـات متشعلقة فى سلاسـل متدلية

الإبنة لاختها بدرية

كنـت عايزة الحتـة دى بالـــذات ليـه
لكـن فرحك انتى قرب وانـا لسه مستنية
يالا حـلال عليـكى مانتـى أختى الشقـية
يعنى أنـا ولا انـت، الحكـايـة هـيه هيه

The Pendant
60X80 cm, Oil on canvas

الصـدريـة
٦٠X٨٠ سم. زيت على قماش

Soon
50X61 cm, Oil on canvas

عن جريب
٥٠X٦١ سم، زيت على قماش

عن جـريـب

(شعـر فريـد فاضـل)

عن جريب ح نطَيَّر طيـــــارة، عن جريـب

بين الحوش و الباب ستـــــارة وعنجريب [1]

لا يحـوشنى صول ولا عمدة ولا حتـى جريب

ده ف وسط بيتى وأهـــــلى بجيـت غـريب

عشان باحلم بنسمة حـرية فى صيف رهيب

امتى تجينا البوسطة[2] شـــايله أعز حبيب

المـرة دى مسكـانـا ولا عـــــايزة تسيـب

ح نـركب ح نـركب، وياتصـــيب يـا تخيـب

[1] العنجريب : سرير من خوص النخل فى النوبة

[2] البوسطة : مركب البوسطة كانت وسيلة مواصلات سريعة بين قرى النوبة تنقل البريد والطرود والمسافرين وتعمل بين الشلال ووادى حلفا

قوللى يا كرج

(شعر فريد فاضل)

قـــوللى يـــا كرج [٣] امتـــــى ييجـــى الفـــرج

مش قـصدى ع الجـواز ده كلـــــه هـرج ومـــرج

ولا حتى العيـد والمولـد وحصان نايم والتانى اتسرج

قـــوللى يا كـرج قوللى امتـــــى ح ييجـــى الفـــرج

قلت لا بويا خدنى مـعاك جـه يقـوم لقـــــيته عـرج

لا عارف يمـــشى معـايـا و لا يطلـع حتـــــه درج [٤]

قاعدة وحدى بكلم نفسى زمـان الونسـة [٥] ولى وخرج

قوللـى يا كـــرج قوللـى امتـى يـيـــــجى الفـــرج

قوللى يا كرج
٨٠X٦٠ سم، زيت على خشب مع خامات

Tell me O Karag
60X80 cm, Oil & mixed media on wood

[٣] الكرج: طبق ملون مصنوع من الخوص يزين حجرات المنزل النوبى
[٤] درج: سلم
[٥] ونسة: جلسة الاصدقاء معاً

إبتسامة لقرية الجنينة والشباك

سمعت عن قرية الجنينة والشباك من خلال قصص صديقى الكاتب النوبى يحيى مختار، وقد عاش طفولته فى هذه القرية الوادعة التى احتلت موقعاً متميزاً فى شرق النيل، الذى كان يفصلها عن قريتى مصمص وعنيبة حيث المدرسة الإبتدائية والمصالح الحكومية، واستفاد الأهالى من هذا الموقع الاستراتيجى حيث جعلوا عنيبة سوقاً لتوزيع منتجاتهم الزراعية والطيور ومنتجات الألبان .. وقد تقلصت الأرض الزراعية بعد التعلية الثانية ورحل الكثيرون شمالاً بحثاً عن لقمة العيش لكن ظلت الجنينة والشباك مركزاً لموالد أولياء الله الصالحين مثل سيدى كبير والشيخ عبد الله وسيدى حسن أبو جلابية ....

وقد تعرض الكاتب يحيى مختار لهذا الجانب فى قصة "مرافئ الروح" المليئة بالرمزية الروحية الصوفية، أما فى روايته "تبدد" والتى وصفها بمرثية لقرية الجنينة والشباك فقد أستهلها بواقعة درامية هى اكتشاف جثة "راجية هميد" بنت القرية طافية على سطح المياه وكأن الكاتب يقر بأن الموت الجسدى ليس النهاية بل قد يكون بداية لم الشمل .. تماماً مثل ما حدث عندما جمعت إيزيس أشلاء زوجها أوزوريس من أركان مصر البعيدة وبعث حياً مرة أخرى .. لذلك فإننى استلهمت هذا الخيط الرفيع من الأمل وتخيلت وجود مدرسة إبتدائية بالقرية يدرس بها ثلاثة صبيان أشقياء .. فجاءت اللوحة والقصيدة "إبتسامة لقرية الجنينة والشباك"

من الشباك نطل ع الجنينة — وم الجنينة نشوف الشباك

تلات تلامذة مستنيين — جرس الفسحة يضرب

ومش ح تساعهم الجنينة — راح يجروا فى الدنيا الواسعة

ويعدوا نجوع وبحور وجبال — ولو تعبوا يناموا تحت نخلة

يشخروا قال يعنى قال — واحد زى أراجوز العيد

والثانى عمال يعيد ويزيد — وتالتهم بيضحك من بعيد

إيه ياترى أخرتها — فى تلات ولاد شياطين

نطوا م الشباك للجنينة — اقولكم نهاية الحدوتة

راح يرجعوا للجنينة والشباك

الجنينة والشباك
٨٠X٦٠ سم، زيت على قماش وخشب

The Garden and the Window
60X80 cm, Oil on canvas and wood

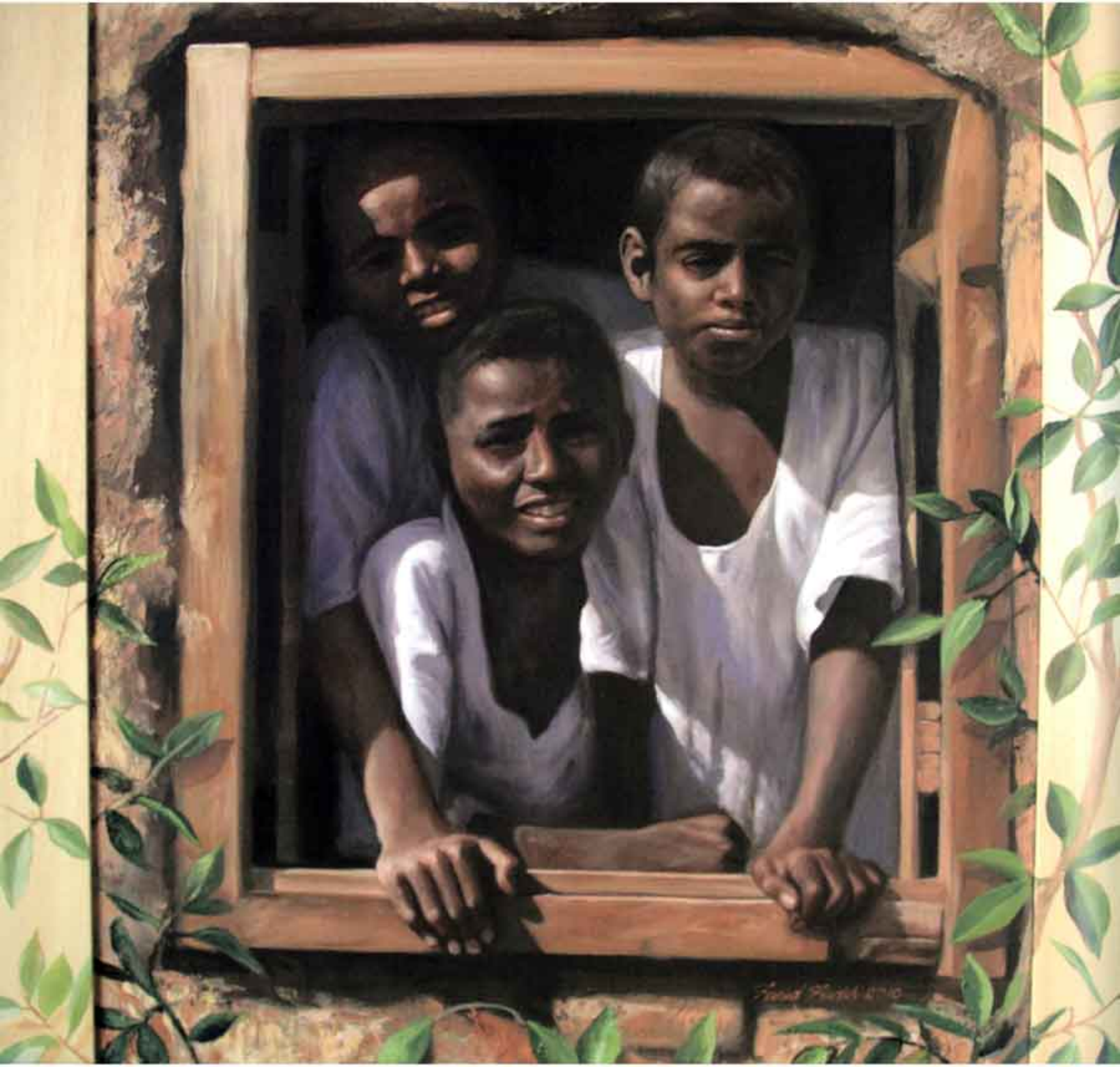

لقـاء مع مـالك الحزيـن

(قصة وشعر فريد فاضل)

فكرت اليوم أن أذهب مرة أخري للنوبة

ليس علي متن سفينة فاخرة

بل في مركب صغير أبحر فيه وحيداً

أجذف يمنةً و يسرةً في بطءٍ شديد

و أتأمل العشب علي ضفاف البحيرة

وبينما أسرح في خيالاتي البعيدة

أسمع رفرفة جناحين قويين

صوت يأتي من الخلف مباشرة

يهبط مالك الحزين الذي يدعونه البلشون

أسأله لماذا أنت حزين

فيرد بصوت منكسر: إنها قصة طويلة

حكاها لي الأجداد

فقد كانت هنا حياة أخري يوماً ما

وجود يختلف عن هذه الصحراء الوعرة المخيفة

قلت له: ماذا تقصد بالضبط؟ و إذا كانت هذه

قصة حقيقة فأين ذهب كل هذا؟

أجاب بحسرة: لا أستطيع أن أصف لك

جمال القري و النجوع التي كانت تنبض بالحياة هنا

في هذه البقعة بالذات، منذ الاف السنين

وحتي خمسون سنة مضت..... كان هنا ناس

طيبين..... يعيشون في سلام وسط زراعات قليلة

وأشجار النخيل الباسقة.... يسبحون في النيل

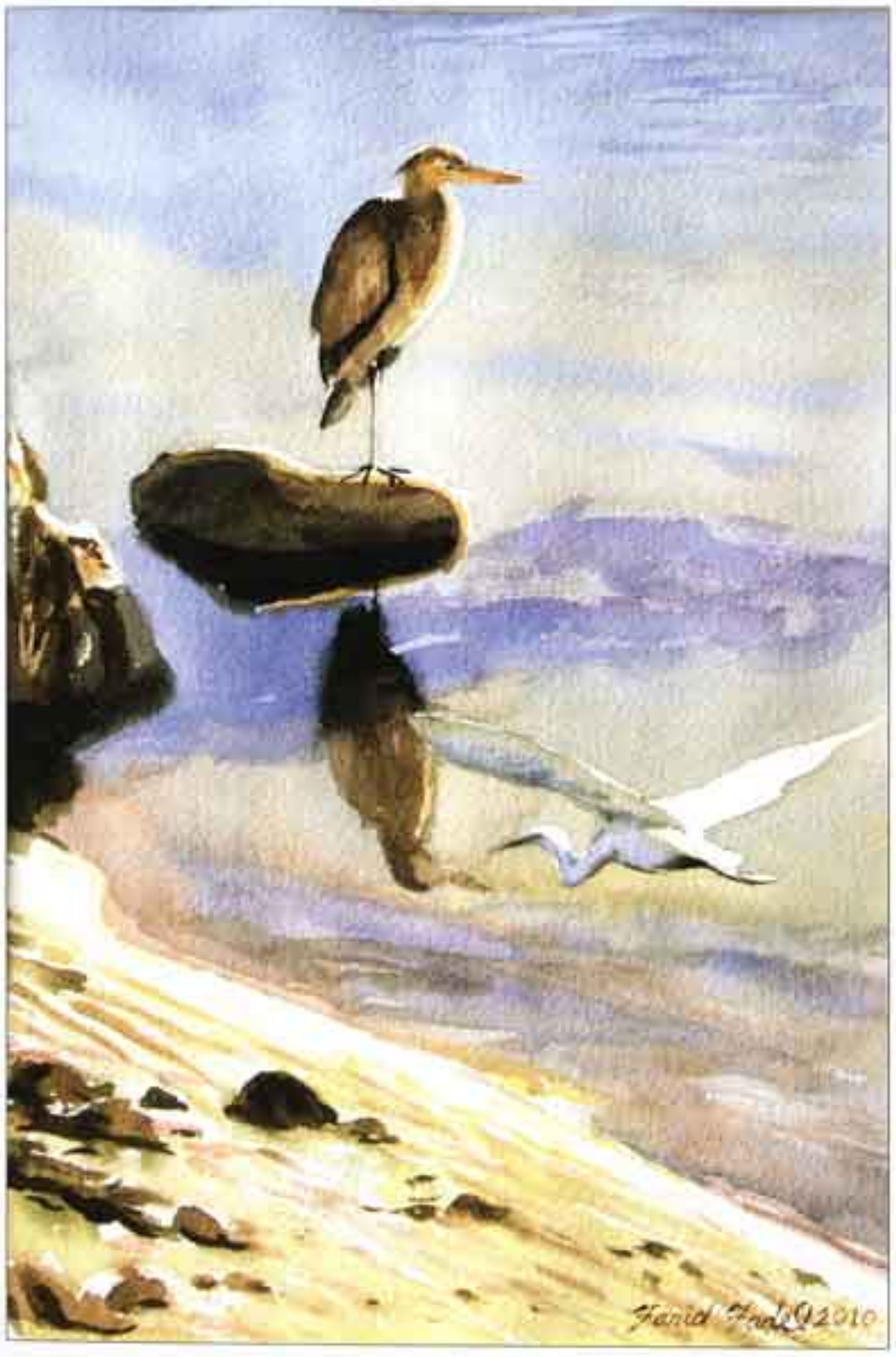

ويضحكون علي الزمن الات. كان لهم صوت

جميل ورقص أجمل بالذات فـي الموالد والافراح

..... يا سلام... (تحشرج صوته ونزلت من عينه دمعة ساخنة)

كانوا يأكلون معاً ويزورون بعض ولم يكن أحداً ينام جائعاً مهما

كان فقيرا، كانت أبواب بيوتهم مفتوحة

العطشان يدخل دون استئذان ليشرب من المزيرة

و الجيران يدخلون ليقضوا أوقاتهم في ونسة و حب

لا كان فيه سرقة ولا جريمة

بلد لا يوجد فيها شرطة ولا سجن

زي ما تقول كده"مدينة فاضلة"

تعجبت وسألته: لكن هذا يحدث فقط في القصص الخيالية والأفلام أما الواقع فشئ مختلف تماماً... هل أنت متأكد من كلامك؟

رد في انفعال: متأكد وأكثر من متأكد. لقد عاشر أجدادي هؤلاء القوم منذ الاف السنين وتناقلت أسراب مالك الحزين القصة جيلاً بعد جيل و.....

قاطعته قائلا: ولكن أين ذهب هؤلاء الناس؟.. أين هم الان؟.. إنني لا أري اي إنسان علي مرمي البصر في اي اتجاه... انظر!

ابتسم وقال : أقولك أنا... جد جدي الكبير كان يلاحظ أثناء طيرانه أن النيل يرتفع ثم يهبط كل سنة في ميعاد محدد....

ثم حدث أن ارتفع مرة ولم ينخفض كالعادة وبدأ الناس يزحفون الي المرتفعات، ويعيدون بناء بيوتهم ويحاولون الزراعة فوق الجبال.....

ثم غمرت المياه الشريط الأخضر الوحيد، مصدر الرزق والحياه ثم غطت شواشي النخيل ، وصعدت للبيوت .....و الناس لا تدري أين تذهب..... إلي أن جاء يوم حضرت فيه البواخر لتحمل الجميع بعيداً بعيداً نحو الشمال.... الناس والحيوانات والمتاع وكل ما يمكن حمله.... فقط تركوا بيوتهم عارية كأطلال شاهدة علي عصر مضي وولي وخلفها قبور الأجداد ينعاهم القطط والكلاب في مواء ونباح تتفطر له القلوب.... فقد تركتهم السفينة ليواجهوا مصيرهم المحتوم في الجبل الموحش...

صمت مالك الحزن، ثم استطرد:... ولذلك دعوا جدي الكبير بـ"مالك الحزين جداً" لأنه كان شاهد عيان لهذه الأحداث منذ ٥٠ سنة

لم أعرف بما أجيبه

ولكنني صدقت قصة جده

ثم ناديته شعراً:

يا مالك الحزين — مالي شايفــك حزين

ده كله يتعوض — وانت طـــائر رزين

قال كله إلا الوطن — نيل و أرض و ساقيتين

وبيت كبير أبيض — وسلم من غير درابزين

كله إلا قبر جدي — أزوره ولو علي عكازين

حـوار النوبـة تتنفس تحـت المـاء

شرحت للكاتب حجاج أدول تصورى عن لوحة أقتبس لها عنوان كتابه النوبة تتنفس تحت الماء وسألته عن رأيه فأجاب:-

مخيلة على أد ما هى رائعة إلا أنها تؤلمنى لأننا موجودين فعـلاً فى قاع البحيرة .. روحنا فى قاع البحيرة .. إحنـا دلوقتى شخوص تتحرك ولكن إنسانيتنا النوبية الحقيقية هى التى سترسمها أنت إن شاء الله.... عندما كتبت رواية ثنائية "الكشر" والتى تحكى عن توقع الفيضان العظيم وحالة الخوف من الدمار والموت، كان من أهم الشخصيات "ساماسيب" الشاب الوسيم الرشيق والمحب للحياة والفنون .. كان شايل هم النوبة وعايز ينقذها ثم يظهر "كبو" وهو كائن إنسانى ولكن هناك بعض الشواهد التى تؤكد أنه من ناس النهر وكان يقول لهم كلام عقلانى عن مربع القوة الضلع الأفقى الاساسى هو الاتحاد والضلع الصاعد من اليمين هو العقل والضلع الصاعد من اليسار هو الدرهم أى الأقتصـاد أما الضلع العلوى فهو بركة الله وهى لا تأتى إلا إذا توفر الأضـلاع الثـلاثة الأولى ... مثل فكرة أعقلها وتـوكل علـى الله .. ففكر ساماسيب أن يستعين بناس النهر نظراً لمعرفتهم بتاريخ بلاد النوبة فنزل إلى مناسيب خمسة تحت سطح المياه لكى يسألهم كيف يتصرفون إزاء الكارثة القادمة .. فكانوا يستمعون إليه والبعض يزعل منه وينتهوا بإجابته "كشركم عندكـم" أى المفتاح معاكم حتى يقابل كنـداكة ملـكة النوبة خارجة على رأس حملة عسكرية ... وأيضاً تقول له "كشركم عندكم" ... كان هذا أسلوبى الروائى فى معالجة التضحية فعندما تجئ أنت الدكتور فريد فاضل لتتخيل لوحة فيها عالم ما تحت الماء وعلاقته بالنوبة فإنها فكرة رائعة وأعتقد أنها أيضاً ستكون رائعة فى التنفيذ وأنا شخصياً متشوق جداً لرؤيتها.

بعد لقائى بالكاتب حجاج أدول أخترت فى رأسى فكرة اللوحة ولكننى على خط مواز للإبداع التشكيلى كتبت قصة قصيرة بعنوان "أبن الجنية" أستلهمتها أيضاً من عالم تحت الماء.

Nubia is breathing under the water
80X100 cm, Oil on canvas

لوحة النوبة تتنفس تحت الماء
٨٠X١٠٠ سم، زيت على قماش

ابن الجنيـة

قصة قصيرة بقلم فريد فاضل

استيقظ نـاس النهر ذات صبـاح ليجدوا بيوت ناس الأرض تحيطهم .. لقـد انقلب الحال تماماً وصار كل شئ لهم .. النخيل والزراعات والبيوت .. يتجولون داخلها بحرية ويعيشون فى العالم الذى طالما تطلعوا إليه من بعيد .. مضت عدة أيام وهم يكتشفون كل شئ، يسبحون بين البيوت يدخلون إلى الحجرات عبر الحوش السماوى الذى صار مائياً، ويجربون النوم فوق العنجريب، والقرع على الدفوف بـلا صوت .. يحفرون فى القاع ويخرجون زلعة فخارية ممتلئة بالحلى الذهبية لم يسعف الوقت أصحابها لانتشالها قبل التهجير .. عالم جديد يحمل أسراراً كثيرة تتمايل مع صفعات ذيول الأسماك المارقة الباحثة عن طعام جديد أو مكان لتبيت .. عمت الحركة الصامتة أزقة القرية الغارقة .. بينما جلست جنية من جنيات النهر تراقب ابنها من بعيد .. فقد جلس صامتاً شارداً بأفكاره وكأنه يجتر ذكريات الماضى .. أحس بيد حانية تربت على كتفه، غاصت رأسه فى حضنها وبكى .. يتذكر ليلة مقمرة إزدانت فيها شواشى النخيل بخيوط فضية وهى تغنى وترقص الأراجيد على شاطئ النيل .. يذكر وجهها الملائكى الأسمر وهى تلعب بين الصديقات وضفيرتيها الطويلتين تطيران فى كل الأتجاهات، رآها .. أحبهـا .. ثم قفز من الماء وسار خلفها على أطراف أصابعه .. عرف بيتها وهـام بها .. كانت تجيئه كل ليلة فى الحلم وتتصور أمامه وهو مستيقظ .. إسمها نورا .. وقد نورت حياته .. ولكنها رحلت ؟! بحث عنها فى القرية كلها دون جدوى ... لا يوجد إنسى واحد، الجميع قد رحلوا .. لقد ضاعت فرصة حياته .. ولن يرى نورا مرة أخرى .. وبينما هو جالس فى بيتها رأى صندوقاً فى الركن البعيد .. ركض إليه وفتحه وقلب محتوياته بسرعة، وبينها وجد صورة نورا، تطلع إليها وابتسم ودسها بين طيات ملابسه ...

انتشرت حكاية ابن الجنية وحبه لنورا .. ووعده ملائكة النهر بأن يساعدوه حتى يجدها ومضت السنين والماء يعلو مع كل فيضان جديد حتى صار النهر بحيرة وغمرت المياه سفوح الجبال وذات يوم أحس ناس النهر بباخرة تمر فوقهم .. حدث جديد عليهم .. فقد مرت سنوات هادئة لم تعكر صفوها أى إشارات من ناس الأرض .. أثارت الباخرة فضول ابن الجنية فصعد لسطح المياه وقت الغروب واستمع لكلام كثير بلغات مختلفة لم يفهم كلمة واحدة منها .. وتجدد الأمل .. هل يتشعبط بواحدة من تلك السفن ويرحل إلى حيث نورا ؟ أم هل تراها تأتى لترى وطنها القديم ؟! تشبث بالأمل .. حتى ظهرت سفينة صغيرة

ذات صباح .. وأحس بإحساس غريب يشده إليها .. سبح نحوها فى لهفة وأنتظر بجوار الهلب الضخم .. ثم أنصت السمع .. صوت إمراة شابة تحكى لطفليها "عارفين يااولاد، بعد طقس المعمودية فى النيل كنا نرمى العصيدة لناس النهر"، وأخذت قطعة من الساندوتش وألقت بها فى الماء وبينما يتطلع الجميع سمعوا صوتاً ثم ارتطام بسطح الماء .. لم تكن سمكة هى التى ألتهمت الساندوتش بل ابن الجنية .. ولم تكن السيدة السمراء سوى نورا حبيبته فى الخيال .. وهى الان أم لطفلين جميلين. خفق قلبها وقلبه وظهرت على صفحة المياه فقاعة أخذت تكبر وتكبر حتى اتخذت شكل قلب ثم انفجرت وأبحرت السفينة راجعةً إلى أسوان.

نـورا | Nora
٥٠X٧٠ سم، زيت على قماش | 50X70 cm, Oil on canvas

لقاء في جزيرة هيسة

تستهوني فكرة جزر النيل بصفة عامة وبالأخص جزر النوبة، وعادة ما يزور السائح جزيرة أسوان وجزيرة فيلة وجزيرة النباتات، وإذا ما قرر أن يرى حجر المجاعة فهنا تكون الزيارة لجزيرة سهيل أما بقية الجزر فليست ذات أهمية سياحية ولذلك يسكنها نوبيون لم يضطروا للهجرة مثل جزيرة عواض وهيسة الواقعة بين خزان أسوان والسد العالي.

تعرفت بالشاب جمول أثناء زيارتي لمعابد فيلة وطلبت منه أن يصطحبني في جولة بجزيرة هيسة وهي مسقط رأسه لكي أقابل عم عبد الهادي وهو شيخ وقور يعرف تاريخ النوبة جيداً، وبالمناسبة "جزيرة هيسة" ليست هيصة بالمرة، بل يلفها هدوء جميل، ومناظر النيل حولها خلابة تلهم الفنانين والشعراء على حدٍ سواء.

مر بنا القارب الصغير عبر جزر صخرية ملساء تلمع تحت سياط الشمس الحارقة .. كانت إحداها جزيرة القطط التي ينفون إليها القطط المارقة عقاباً لها على تصرفاتها غير المسئولة، وحالما وصلنا إلى المرفأ الهاد أخذت أسرع الخطى خلف قائدي ومرشدي جمول الذي اصطحبني حتى بيت الحاج عبد الهادي كبير الجزيرة الذي يلجأ إليه الجميع للمشورة وفض النزاعات كما هي عادتهم.

جلست في المضيفة استمع إلى حكايات النوبة القديمة من لسان شاهد عيان عاصر التهجير ولكنه كان محظوظاً فلم يضطر للهجرة لأن بلدته شمال السد العالي.

تحدث عبد الهادي كثيرا عن الحياة في النوبة القديمة وطمي النيل الذي كانت تجلبه الأمطار من الجنوب فيحمل الخير للشمال وذكر منافعه الطبية وكيف أن أحد الخبراء تنبأ بانتشار الروماتيزم والفشل الكلوي بعد انحسار الطمي وراء السد.

سألته عن الملاحة في النوبة المصرية فأشار إلى الشلال الأول من الشباك وذكر أن الصخور كانت تضيق الخناق على مجري النيل في باب دابود وباب كلابشة ولكن الملاحين كانوا يعرفون هذه المناطق جيداً وعند المضيق كان النيل يتجه غربا حتى كوروسكو ثم يعاود مجراه للجنوب.

سألته: سمعت أن بعض فقراء النوبة كانوا سعداء بالتهجير حيث أنه سيكون لهم بيوت جديدة، أما الأغنياء فحزنوا على ترك بيوتهم وممتلكاتهم من أراضي وبهائم وسواقي ونخيل بالذات أن التعويضات كانت زهيدة هل هذا صحيح؟!

رد عم عبد الهادي: في النوبة لم يكن هناك أحد محتاج حقاً لأن الغني كان يعطي الفقير دون مقابل ولم يكن أحد يشحت، وكان فيه أمان، منين ما تسيب حاجتك تلاقيها، ولم يكن هناك سجن ولما بنوا حجرة سجن، واحدة لم يسكنها أحد.. ولكن مع التهجير الأخلاق اتغيرت.

سرحنا بعيدا وقلت له احكيلي عن النيل في النوبة يا عم عبد الهادي. رد مبتسما: يا سلام.. النيل مصدر الحياة. قبل الأربعينات لم تكن هناك طلمبات فيه بل سواقي وشواديف لرفع المياه، وكانوا يصنعون الحبال من جريد النخيل، كانوا يرموه على الأرض ثم يدقونه بما يشبه الشاكوش ثم يغمر بالماء ويفتل لصناعه الحبال التي كانت تربط القواديس أي البلاليص في الساقية.

يا سلام.. ولما يكون الواحد قاعد في مركب بالليل تسمع صوت السواقي زي المزيكة وضربات الموج في النيل معاها، زي ما الست بتغني الموجة تجري ورا الموجة عايزة تطولها.

وكان السمك إما مجبل أو مبحر أ ي متجهاً للجنوب أو الشمال ونعرفه من شكل ديله، المجبل يقاوم التيار فيكون ديله تعبان لكن لحمه جميل ومغذي، أما المبحر فيمشي مع التيار وبالتالي فهو كسول ولحمه مش قد كده!

عم عبد الهادى
٣٨X٢٨ سم، جواش وأوراق ملونة

Abdel Hadi
28X38 cm, Gouche & colored pencils

وكنت بتعوم في النيل وانت صغير؟

طبعا: كل الأولاد والشباب كانت تجيد السباحة وينزلون يرطبوا أجسادهم من قيظ الحرارة. مرة نزلت أتسبح وكان هناك تمساح على الشط نايم في الشمس ثم غطست وقبيت ولم أجده في مكانه! في ثانية عرفت إنه نزل المية لما شافني استحم، فغيرت مكاني وأخذت أضرب الماء بسرعة لأهرب وفعلا لما وصلت الشط كان ذيله يضرب بعنف في المكان الذي كنت أستحم فيه... ربنا ستر!.

لقاء مع الكاتب حجاج أدول

كيف ترى الثقافة النوبية؟ هل هي منعزلة عن الثقافات الأخرى؟

مافيش ثقافة منعزلة، والثقافة التي تنعزل تدخل في العنصرية وعندها تتخندق وتخنق نفسها .. ولكن كل ثقافة إنسانية خاصة هي فرع من شجرة الثقافة الإنسانية العمومية، وهنا يحدث تبادل العطاء والأخذ وإذا ما فكر الفرع أن ينعزل فهو يسقط وتخسره الشجرة، ولكن البعض يحاول طمس الثقافة الخاصة تحت شعار الاندماج في بوتقة الانصهار، وهذا خطأ كبير لأنه طالما أن آليات الثقافة الخاصة متحركة فيجب أن نعطيها فرصة الإستمرار وهذا استمرار متجدد وليس على نفس الوتيرة السابقة.

عرقية معينة تستوطن بيئة معينة لها خصوصية والاثنان معا يرسيان قواعد الثقافة والتي تستحضر لغة خاصة تعبر عنها فبالتالي العرقية والأرض واللغة هي أساسيات النكهة الثقافية المميزة لأي مجموعة من البشر .. العرقية تتغير بالاختلاط والتزاوج ولكن الأرض هي العامل الأثبت وفي حال النوبة أهم عنصر هو النيل وكانت واجه البيت النوبي على النيل وليس مواجهة للجبل الخلفي والنيل نهر غير ثوري.. فبعد أن شق طريق منذ القدم صار له مسار روتيني معلوم، إلا في حالة الفيضان فهنا يثور النيل لفترة زمنية محدودة.. وكذلك الإنسان النوبي هادئ بطبعه إلا في حالات نادرة تجده يثور ويغضب لفترة وجيزة ثم يرجع لسابق عهده وديعاً مسالماً مبتسما.

والرقص النوبي مستوحى من النيل يقف الرجال صفوفا مثل موج النيل المتتابع في جيئة وذهاب تشبه تيارات النيل، ووقوفهم في حلقات ودوائر تشابه دوامات النيل، ورقصة «الفرى» تستلهم حركة الأسماك، وفي النوبة السودانية رقصة تستلهم صهيل الخيل وأخرى تقلد الحمام.

خذ مثلا زي المرأة النوبية الجرجار الشفاف الذي يستوحي ماء النيل الرائع الذي يشف عما تحته والجزء الأسفل من الجرجار له ثلاث طبقات أفقية تنسدل في تتابع يشبه موجات النيل الهادئ.

باختصار الإنسان النوبي هو الثروة الثقافية الحقيقية، ولكن النيل هو مصدر إلهامه وخصوصية ثقافته فإذا ما هو هجر بيئته الأصلية فإن المنظومة النوبية كلها تختل كما لو كان ضربها زلزال مدمر.

لوحة البحث عن آشـــا أشـري
مستوحاة من رواية "الرحيل إلى ناس النهر"
للكاتب حجاج أدول
٧٠X٥٠ سم، زيت على خشب

Looking for Asha Ashry
Inspired by the story "Departure toward the people of the river"
By: Haggag Addol
50X70 cm, Oil on canvas

وعن ناس النهر يقول الكاتب حجاج أدول:

زرت النوبة القديمة وكان عندى حوالي تسع سنوات وكنت فى التعليم الابتدائى وذهبت بصحبة أمى وانبهرت بالنيل، وأحدث بداخلي تأثيراً سحرياً منذ الطفولة ثم ذهبت مرة أخرى في الشباب لأعمل بالسد العالي وفي هذه المرة كان نيل أسوان .. والنوبي في المهجر يحاول أن يستقر بجوار الماء مثل عزبة توماس وعافية على فرع الفرخة من ترعة المحمودية بالإسكندرية، قرأت كتاب الخرافة والأسطورة في تاريخ النوبة للشاعر إبراهيم شعراوي، وسمعت قصص الجدود عن مخلوقات النهر والأخوة بينهم وبين مخلوقات البر، وكيف أن علاقتهم خاصة جداً ويحافظون على بعضهم، والنوبيون لا يأكلون السمك لأن لهم اعتقاد بتمثل الشخص فيه، فكلمة أنيسي وأنيسي بمعنى أختى وسمك متشابهة جداً فيقولون هل تأكل سمك؟ ح تأكل أختك؟

و"آشا أشرى" تكرر قصة جدتها التي غرقت أيضا في النهر وقد يكون غرقها رمزا لغرق النوبة تحت مياه السد وربما تكون هناك آشا ثالثة.

كانت آشا أشرى رائعة الجمال ويتمناها الشباب كلهم، ولكن قلبها كان متعلقا بصيام.. صيام النسّاى الذي رحل للإسكندرية وهناك وقع في حب كماريرة اليونانية ونسي آشا ولكن البحر المالح خائن وياما حذروه منه، وعندما قرر صيام العودة للنوبة رجع مريضاً ثم، سقط في المياه ولم يقاوم ولم يحاول أحد أن ينقذه، ولم يكن انتحاراً بل تطهير وجسدي.

رمزي تماماً مثل المعمودية في المسيحية والوضوء في الإسلام وقبلها ديانات كثيرة تمارس التطهير بالمياه.

وعن الأسطورة في النبوبة يقول:

الشعوب التي لها تاريخ طويل وعمق ثقافي تتداخل فيها الأسطورة مع الحقيقة والخرافة مع الواقع. وحتى بناء الخزان في ١٩٠٢ لم تكن مخلوقات النهر أسطورة بالنسبة للنوبيين بل واقعاً يعيشونه وجزء عضوي في الحياة النوبية.

كان النيل بالنسبة لهم كائناً حياً، إلهاً كامل الألوهية وبعد الديانات السماوية أصبح آية من آيات الله، وظلت الطقوس المرتبطة بالنيل جزءاً هاماً من الحياة في النوبة القديمة.

عندما أكتب عن هذه الجزئية أحس براحة وسلاسة، وتأتي القصص على وسائد سماوية أو مصاطب على السحاب، وأسمع حكايات وما علىَّ إلا أن أنسخ....الخطوة التالية هي توظيف تلك الكتابة المسترسلة في فن الرواية.

لقاء مع الكاتب إدريس علي في الإسكندرية :

س: ما رأيك في تهجير النوبين وتأثيره في نفسية المهجرين؟

ج: في نظري أن التهجير نقلة حضارية فالنوبة القديمة كانت طاردة حضارياً. الجيل الجديد من الأولاد والبنات كانوا فرحين بالهجرة ليه؟ كانوا يسمعوا عن المدينة حكايات كثيرة وكان هناك أزمة طعام بالذات بعد بناء الخزان، والبنات في النوبة كانوا يعانون من كثرة العمل، فالبنت النوبية تقوم بكل شيء من إحضار الماء في صفائح من النيل أو الآبار والعجين والخبيز وتنظيف البيت والاهتمام بالصغار، وكان العمل أحيانا يتطلب الخروج في جو شديد الحرارة... فكانت البنات فرحانة أن فيه مية في حنفيات، ولن يضطروا للسير مسافات تحت لهيب الشمس الحارقة.. أما الرعيل الأول فكان حزين جداً لأنه مرتبط بالنيل. فالنوبي أساسا كائن نيلي مثل البلطى والتمساح.. كان الرجل الكبير في السن يطلع يصلى ثم ينزل للماء، يطلع يأكل ويشرب ثم يسبح مرة أخرى في النيل.. ليس هناك أشياء كثيرة ممكن قتل الوقت بها في النوبة وكان النيل نظيفاً جداً في النوبة، ويختلف عن النيل الشمالي الذي يلقون فيه بكل شيء.

س: كيف ترى البيت النوبي؟

ج: البيت النوبي من أجمل البيوت في المجتمع المصري، فإنه يتميز بالاتساع الكبير، وهناك عادة أكثر من خمس أو ستة غرف في كل بيت بالإضافة إلى المندرة والسبيل.. وكانت الواجهة مبهرة تزينها أطباق الصيني التي تعكس أشعة الشمس ورسوم حيوانات وطيور ونباتات من البيئة النوبية.

(عاش الكاتب إدريس علي في النوبة القديمة حتى سن ١٠ سنوات ثم انتقل إلى القاهرة عام ١٩٥٠.)

س: وماذا عن بلاد النوبة قبل التهجير؟

ج: النوبة القديمة هي النيل والأمان، فقبل النظرية الماركسية كانت النوبة اشتراكية بمعنى أنه لا يوجد شحات في النوبة ولم يكن أحد ينام جوعاناً وأي بيت فيه أكل كان يطعم الجعان.

وفي الأفراح الكل معزوم، والعريس لا يتكلف كثيرا لأن النقوط من جميع الأهل والأقارب تغطى نفقات الفرح وما بعده.

س: ما الذي يبقى في قلبك وعقلك من النوبة القديمة؟

ج: بلا شك القدرة على قبول الآخر والتسامح. فالنوبيون لا يفرقون بين مسيحي ويهودي ومسلم. فأمي مثلا كانت تقول في عرض مريم، وكانوا يرشمون الصليب على جبهة الطفل ويعمدونه في النيل، وهذه بالطبع من بقايا التأثير المسيحي في النوبة، والتي تحولت للإسلام في وقت متأخر نسبياً عن بقية مصر. فالنوبي لا يعرف الحس الديني المتطرف.

(مشاهد نوبية) من تصوير الكاتب/ يحيى مختار

المشهد الأول: السوق المتنقل

يأتي القارب وبه شخص يبيع كل ما يحتاجه الناس رجال ونساء من عطور وإيشاربات ولعب ويقبل عليه أهل القرية من كل صوب وتشعر بالإثارة في الجو حيث لا يتاح لهم دائماً فرصة الحصول على ما يرغبون، ثم يلملم التاجر حاجياته ويرحل إلى قرية أخرى.

المشهد الثاني: جاءت الصنادل لتحمل النوبيين للنوبة الجديدة وبدلاً من أن يتجهوا نحو شاطئ النيل لاستقلال المراكب، وجدوا أنفسهم يتجهون تلقائياً إلى الجبل نحو مقابر الآباء والجدود والأبناء والأخوة وكل الذين لم يستطيعوا أن يأخذوهم معهم للمهجر، وهناك عند الأفق نجد الجميع يقفون ليقرأوا الفاتحة بينما سعف النخيل الأخضر ترقد بجوار القبر وإناء فخاري ملئ بماء النيل موضوع بجوار موضع الرأس.

****ملحوظة عن الطبيعة في بلاد الكنوز والفاديجا:**

بعد تعليلة الخزان كانت القرى الكنزية التي تقع خلفه مباشرة من أفقر القرى حيث أنهم فقدوا كل أراضيهم الزراعية والطريقة الوحيدة لزراعة ما يكفي لإطعام بهائمهم كانت بنقل الطمي إلى بعض الأراضي المنبسطة ومحاولة زراعة مساحات صغيرة بجوار البيوت. ولم تكن هناك مساحات من النخل ولذلك فالمعمار الكنزي لا يستخدم فلائق النخيل والخوص للتسقيف مثل الفاديجا بل يتميز بالأسقف المقوسة والقباب.

أما في قرى الفاديجا فإنهم كانوا يفلقون جذوع النخيل إلى اثنين ثم يرص على الأسطح ثم تشكل حصيرة من جريد النخل بعد تربيطه بحبل ثم يوضع فوق كل ذلك الطوب المخلوط بالتبن.

المشهد الثالث: مشهد إخصاب النخيل عند الفاديجا

بعد التعلية الثانية لخزان أسوان: كان المشهد كالتالي، شاطئ النيل، ثم غابات أشجار السنط ثم غابات النخيل ثم الأراضي الزراعية.

بعد بناء الخزان وبالذات التعلية الثانية في الثلاثينات غمرت مياه النيل أشجار السنط وجذوع النخيل التي لم تكن تظهر قواعدها إلا زمن التحاريق حين يفتحون الخزان فيهبط مستوى المياه وكان هذا غالبا وقت جمع البلح.

أما الإخصاب والتلقيح فكان يتم والمياه تغمر نصف النخلة على الأقل، كان الملاح والفلاح يذهبان معا في قارب حيث يربط الملاح المركب بجذع النخلة بينما يتسلق الفلاح النخلة باستعمال حبل حتى يصل للشواشى وهو يحمل شرشرة، وكان يضع السباطات الذكرية داخل عراجين النخل الأنثوية ويربطها حتى يتم الإخصاب وإثمار البلح.

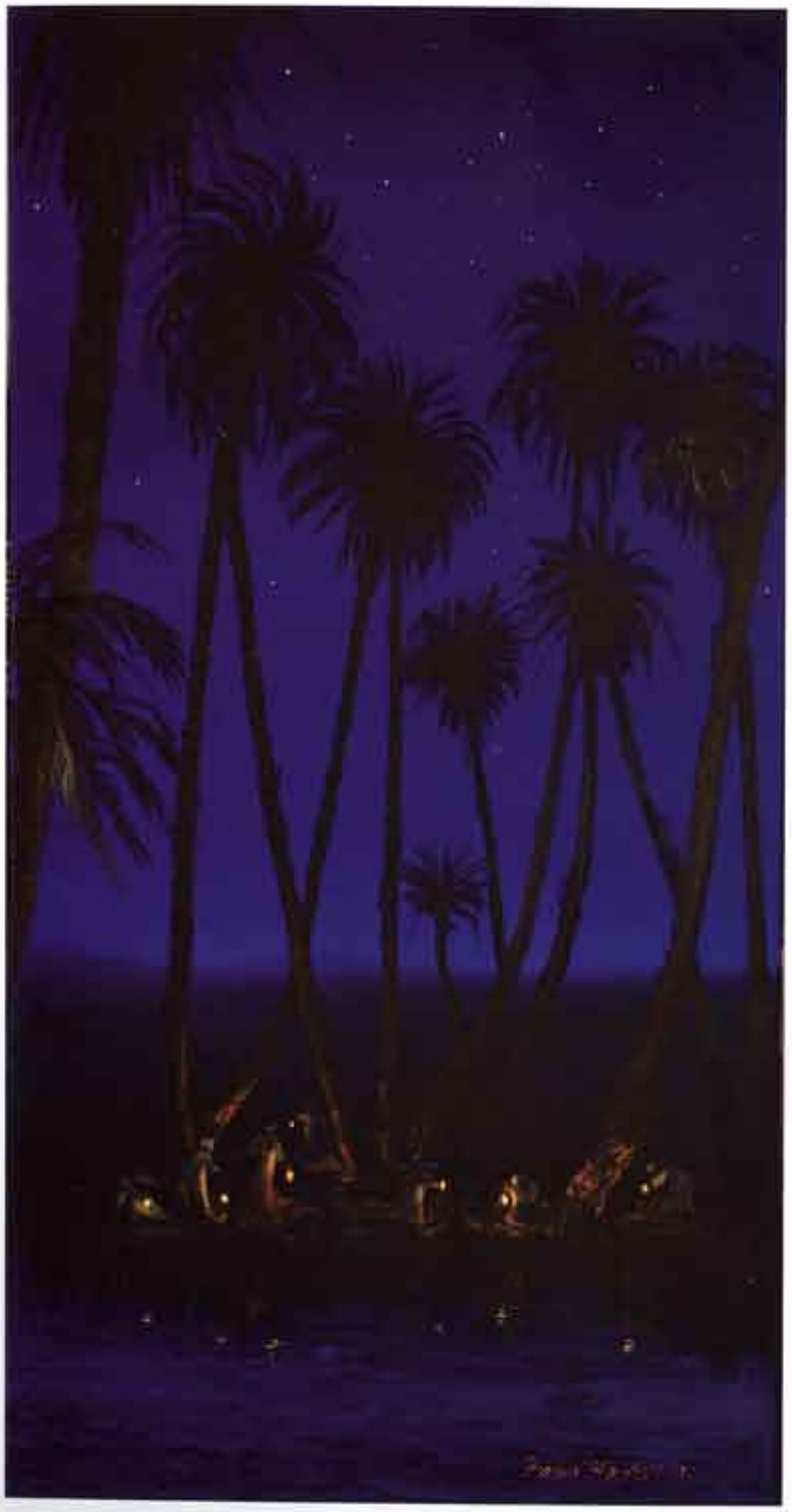

ووقت الحصاد كان يقطع كل عرجون ويربطه بحبل وينزله على مهل حتى لا يرتطم بالأرض ويتبعثرالبلح.. وبعد ذلك يقلم النخلة ويقطع السعف الزائد واليابس وبذلك تطول النخلة سنة بعد سنة.

المشهد الرابع: مشهد الأطفال والفوانيس:

عند الفجر كنا ننزل ونحن أطفال ونغوص بين غابات النخيل صبيان وبنات نحمل الفوانيس والظلام يلف القرية... كان موسم نضج البلح وكنا نريد أن نلتقط ما يسقط من بلح أثناء الليل عندما تهز الرياح الشواشى والعراجين فيسقط بعض البلح الناضج، وكان هذا البلح مشاع بين الجميع يلتقط كل طفل ما يقدرعلى جمعه ويتبارى الأولاد والبنات في سرعة جمع البلح ويتباهون بالكمية التي يجمعونها، وكان لكل طفل صومعة صغيرة في المنزل تسمى جوسيه، وهي مبنية بالطين ولها فتحة في القمة وفتحة سفلى ويوضع مع البلح بعض الرماد حتى لا يضرب فيه السوس.

الأطفال والفوانيس	Children and Lanterns
٤٠X٨٠ سم، زيت على قماش	40X80 cm, Oil on canvas

سألت الكاتب يحيى مختار

ما هي الظروف التي كونت الشخصية النوبية بطبيعتها وعفويتها؟

الطبيعة كان لها تأثير كبير .... النيل، والهدوء والبعد عن صخب وضوضاء المدينة كل ذلك مع خشونة بدائية فيها قرب من الفطرة، فالأرض تنبت الزرع تحت مرمى البصر، ويستطيع النوبي أن يشاهد النبات وهو برعم صغير يراقبه أثناء نموه حتى يترعرع، كل ذلك بالإضافة إلى العزلة. فالنوبة المصرية محصورة جغرافياً بين جندلين الجندل الأول والجندل الثاني، والجنادل تعترض حركة الملاحة فكانت النوبة منطقة معقمة لم تلوثها الجراثيم والخطايا.

وكان الري هناك بثلاث طرق أولاً الغمر للمساحات التي يطرحها ماء الفيضان محملا بالغرين أو الطمي فلا تحتاج لأسمدة وتطرح الزرع من نفسها.

ثانياً، الأراضي المرتفعة قليلاً والتي كانت أعلى من مستوى الفيضان كانوا يستخدمون فيها الشادوف.

ثالثاً، وأخيراً الري باستخدام الساقية للأماكن الأكثر ارتفاعاً، والساقية النوبية لها حدوتة مختلفة تماماً عن سواقي الصعيد من حيث الميكانيزم لما لها من أصول رومانية، وفي كثير من الأحيان كانت تتكون من ثلاث سواقي على ارتفاعات مختلفة حتى تصل المياه للأرض.. ونظرا لتكلفتها الباهظة كانت تشترك فيها أكثر من أسرة واحدة ينظمون أوقات الري بينهم ويتركون فرصة للفقراء ما بين حصص الري.

وكانت "الأرجاديه" (الطارة) يوضع بها جلد وزيت خروع، فعندما تدور الساقية تسمع موسيقى غير عادية كانت تظهر أكثر في السكون التام الذي يلفها في المساء، وفي الخلفية إيقاعات حوافر الأبقار التي تدير الساقية.

عادة كانت الدورة الأولى في الصباح الباكر حيث تربط العائلة الأولى أبقارها في الساقية ثم عند نهاية الري يحلون البهائم، وبعد فترة تأتي العائلة الثانية، وهكذا لمدة أربع فترات زمنية على مدار النهار أما "كوسيم فاليه" فهو نصيب الفقراء من الرى بين حل البقرات وربط التي تليها في الترتيب، وكانت الزيجات بين الأسر المشتركة في نفس الساقية مألوفة لانها تحافظ على المال والملك. وأدى ذلك كله إلى ترابط أسرى قوي.

وتـدور الإسكاليــه

وتدور الإسكالية[1] بتــدوَّر علــى مَشَـنْ موليــه [2]

طب راح نمشي ليه ح نشيــل إيــه ولا إيــه

والكبير عامللي بيه قــاعـد ورافــع رجليــه

والحاجة طابخة أورمة ولمـــون عـايـم على أبريــه [3]

وجاكوت [4] أخضر وإنما ايه لا تقوللي لحمة ولا خضار سوتيه

وطبق فشار وحلاوة تمر أطعـم م البتـي فـور والسابـليـه

وتدور الإسكاليه بتـدور علـى مشن موليــه

(شعر فريد فاضل)

الإيسـكاليـه
٨٠X٦٠ سم، زيت على قماش

Eskalay
60X80 cm, Oil on canvas

[1] الإسكالية: الساقية
[2] مش موليه: جبل الشمس
[3] أبريه: أكلة نوبية تصنع من رقائق الذرة
[4] جاكوت: أكلة نوبية تشبه الملوخية

لقاء مع الكاتب حسن نور

سألت الكاتب حسن نور، ما سر نجاحك في وصف حياة الأطفال في النوبة، ففي قصة أديلا مثلا نعيش مع الأطفال الذين ينتظرون مركب الريس شلالي التي لا تأتي، ونفكر معهم في مشكلة الرجوع لبيوتهم البعيدة ولعبهم وضحكاتهم.. ما هو سر إحساسك العميق بالطفل؟

أجاب مبتسماً، السر هو أنني حتى الآن أعيش طفولتي وأتصورها في مخيلتي في لوحات حية.. كيف كانت المدرسة في المركز والقسم الداخلي بها. وما زلت أتذكر تفاصيل النوبة القديمة التي نشأت بها، وبعد نزوحنا كعائلة للقاهرة كنت أقضي ثلاث شهور الصيف في البلد القديمة، وأمارس الحياة بكل جوانبها كنت أنزل استحم في النيل عرياناً وأدخل مع أصدقائي في أي بيت ونقول لهم إننا جوعانين فيعطوننا الطعام دون أن يسألوا من نحن، وبعد أن يتمموا لنا واجب الضيافة يسألون منين انتم؟ فنقول من نجع الجزيرة.. فأنا عشت هذه الفترة الجميلة التي كان فيها الناس بيحبوا بعضهم، وكانت البيوت مفتوحة... بعد صلاة العشاء، كان الرجال يجلسوا أمام المسجد وتأتي صواني العشاء من كل البيوت ويقوم أحدهم بتوزيع الأكل وبالذات اللحوم والطيور على كل الصواني حتى التي أتت خالية من الزفر وبعد أن يفرغ الرجال من الأكل يأتي دور الصبية الذين يصبون الماء لغسل الأيدي ثم يأتي دورهم في الأكل.

بعدها يضعوا الصواني جانباً وتأتي النسوة وبطريقة عبقرية تعرف كل واحدة صينيتها وتأخذها إلى البيت.. وهكذا كان الأكل فرصة للمشاركة وإثبات روح الجماعة التي تنبذ الملكية الخاصة جانباً، ويختفي الطمع ويظهر الكرم والسماحة ... وفي ظروف الوفاة والعزاء فإن بيت الميت لا يطبخ لمدة ثلاثة أيام بينما يقدم الجيران الطعام للضيوف والمعازيم عن طيب خاطر ويتكفلون بكامل المصاريف.

سألته وماذا عن المشاركة في الأفراح؟

أجاب، كان العريس يتحمل كل نفقات الزواج ويقيم الزوجان في بيت العروسة أربعين يوما يتم أثنائها بناء بيتهم الجديد الذي يشارك في بنائه كل أهل القرية، كان الرجال يقومون بحمل الطوب والبناء بينما تحمل النساء الماء من النيل. وكان الجميع يشاركون وكلما اكتملت "سريجة" أي صف من الطوب تخرج صواني الشاي بالحليب ... والنوبيون كلهم يشربون الشاي بالحليب، وفي الصباح أنا شخصيا أكتفي بكوب من الشاي بالحليب مع "توبيه"، وهو مثل الفايش في الصعيد... وبمناسبة الحليب فإن كان بيت ما في النوبة يمتلك بقرة فهو يسقي النجع كله لبناً مجاناً، وفي النوبة لا يبيع الناس اللبن أو البيض، تكون عيبة كبيرة. فاتذكر أننا لم نكن نمتلك بقرة ولكن كنا نعرف أين نجد اللبن لاستعمالنا الشخصي.

ماذا تتذكر من مشاهد الطبيعة في النوبة القديمة؟

أهم ما قد حفر في ذاكرتي هو الفضاء الشاسع ولم يكن هناك بيت يعطي ظهره للنيل، وبالتالي عندما يخرج النوبي من منزله كان النيل أول ما يرى فهو الذي يروي الزرع والضرع والإنسان، وهو مصدر الحياة وكانت البوابة المطلة على النيل مخصصة لدخول الرجال والباب الخلفي للنساء، وذلك ليس دليلا على مكانة أقل للمرأة بالمجتمع النوبي بل على العكس تماماً، فالمجتمع في النوبة هو أمومي أنثوي بالمقام الأول، ويعتمد على دور الأم في تربية الأطفال بينما يقوم الأب بالعمل لكسب القوت اليومي أو الهجرة للشمال وإرسال الحوالات المالية للأسرة بالنوبة.

أتذكر أن والدي توفى ونحن صغار، فقامت أمي بتربيتنا، وكانت هي الأم والأب معاً وعلى الرغم أنها لم تنتمي لقبيلة الوالد إلا أنها اهتمت بصلة الرحم مع أسرته، رغم أننا لم نلمس اهتماماً كبيرا من جهة العموم وأولاد العم.

نرجع للطبيعة مرة أخرى حيث أتذكر الجبل خلف صف من البيوت المزخرفة ثم أرض زراعية ضيقة ثم النيل العظيم والمعبد في نجع البربا، والبربا تعني المعبد والذي ذكرته في إحدى قصصي.... كيف كان الطفل "سمسوم" يهدد أمه بأنه سيذهب هناك، وتحذره الأم من المساخيط.

ولقد أثرت الطبيعة ذات المساحات المفتوحة الواسعة في شخصية النوبي، فتجده هادئ الطبع، لا يفقد أعصابه بسهولة، فإنه لم يتعرض في حياته لثقافة الزحام والخوف من الحرمان فكل شيء مشترك بين الأهالي والجميع يعرفون بعض ويتبعون نظاماً فريداً من التكافل الاجتماعي.

زيارة في الظهيرة
٥٠X٧٠ سم، زيت على قماش

Noon time visit
50X70 cm, Oil on canvas

وماذا عن الرقص في بلاد الكنوز؟

كانت رقصة الكف هي المحببة وكان اثنان من الراقصين في مواجهة اثنين آخرين ويصفقون على إيقاع ضاربي الدفوف بينما يصطف الناس حولهم في دائرة كبرى ويشدو المغنى بأغاني نوبية تغني في الأفراح.

وتختلف رقصة الكف عن "الأراجيد" التي يتمايل فيها الراقصون من رجال ونساء في حركة مستقاة من أمواج النيل وهي رقصة فاديجية أخذت تنتشر بين الكنوز مؤخراً وانحسرت رقصة الكف نسبياً في الآونة الأخيرة لأن جيل المغنيين آخذ في الانقراض!!.

النوبي والنيل

يحكي شاب عاش في النوبة القديمة فيقول:

شغفاً شغفت بالنيل. أراه أمامي في كل وقت، في الفجر والضحى وساعة الأصيل والمغربية والمسا والليل طويل.. أحتاجه، أناجيه أرفع قلاعي وامتطيه، مائه العذب عزيز على، يأتي هادراً من منابعه، فلا يستطيع إنسان أن يقاومه... فقط يقف أمامه في خشوع، يراقب ويترقب.. وعندما تعلو المياه وتفيض وترفض الرجوع لزمامها الأول فإننا نرضخ ونستكين، ونتراجع أمام النهر العظيم، في استسلام نحزم امتعتنا ونلوذ بالهضبة التالية، نعيد بناء قريتنا وبيوتها الواسعة ذات الألوان الزاهية والحوش السماوي، وأرى صبية موهوبة تصيغ النقوش والزخارف بحبٍ بالغ على العتبة والحيطان.. ومرت السنين والناس عايشين شباب ومسنين، قاعدين مستنيين الفرج، قالوا لنا "لن تنفع معكم حيلة هذه المرة" فالماء الذي يهب الخير والحياة سيأخذ كل شيء إلى غير رجعة، لن تنجح معه حيلكم السابقة، سوف تغمر المياه السهول والهضاب والآكام والجبال وتفيض خمسين فيضاناً مرة واحدة.

سمعت الأخبار وبين عدم التصديق والصدمة وجدتني أردد أغنية جديدة:

من رحم المياه خرجت وها هي تبتلعني
فهل أرجع جنيناً، طاهراً لا شيء يزعجني؟
أم أغرق في عشقها والموج يلطمني
فلا بيت ولا لحد ولا شيء عندي يسترني
صوت من الأعماق ناداني وعينان تنظرني
صبية من بنات النهر بيدها تمسكني
أنهار دمعي فوق نهري دفعاً تدفعني
شقَّت ما بين كفينا وصارت تحملني
إلى أين، لست أدري فالماء يسبقني

(شعر فريد فاضل)

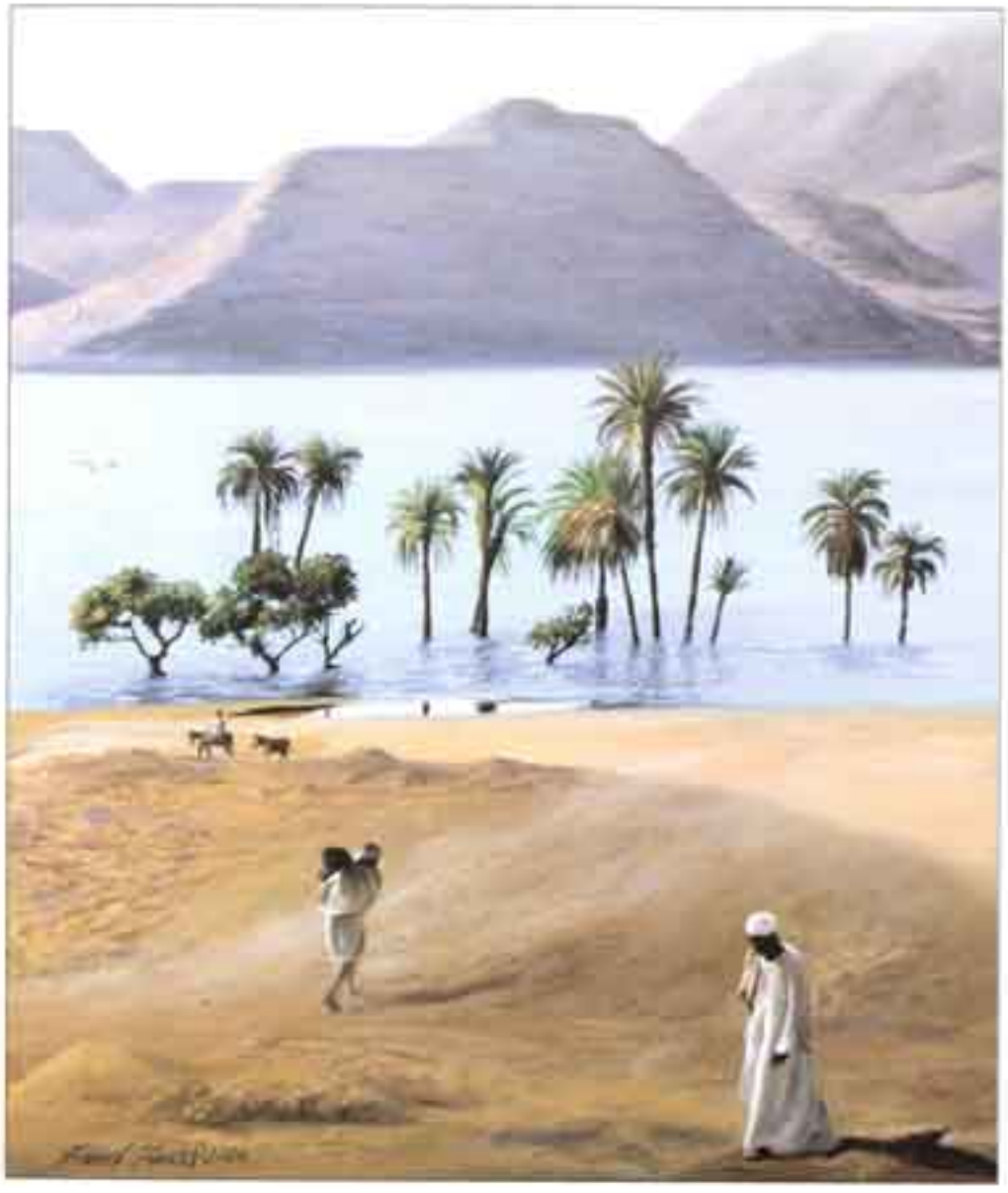

لوحة الماء يحلو
٥٠X٦١ سم، زيت على قماش

Rising water
50X61 cm, Oil on canvas

فريد فاضل.... فى سطور

- ولد فريد فاضل بمدينة أسيوط عام ١٩٥٨ لعائلة تعشق الموسيقى الكلاسيكية وتمتهن الطب والمحاماة.
- التحق بمعهد الكونسيرفتوار عام ١٩٦٥ وتتلمذ على يد الأستاذ " أدولف منشة " ليعزف الكمان بالإضافة إلى آلة البيانو والغناء.
- أقام معرضه الأول للتصوير بالألوان المائية عام ١٩٧١ بقصر ثقافة قصر النيل وكان عمره عندئذ ثلاثة عشر عاماً .. يومها كتب عنه الناقد صبحي الشارونيگ" موهبة مبكرة تعرض في قصر ثقافة قصر النيل".
- تخرج من كلية الطب جامعة القاهرة عام ١٩٨١.
- حصل على ماجستير طب وجراحة العيون (جامعة القاهرة) عام ١٩٨٧.
- ناقش رسالة الدكتوراه بعنوان الكيمياء المناعية لرقعة القرنية المرفوضة بجامعة القاهرة عام ١٩٩٨.
- يعمل حالياً استشاري طب وجراحة العين بمعهد الرمد التذكاري بالجيزة.
- نشرت الموسوعة العالمية " International Who's Who of Intellectuals" لسنة ١٩٨٧ نبذة عن حياة الف فريد فاضل ووصفته بأنه رجل عصر النهضة لأنه يجمع بين الطب والفن التشكيلي والموسيقى.
- أقام ستة وثلاثون معرضاً فردياً للتصوير بمصر وإنجلترا وأمريكا بمتحف توليدو للفنون بولاية أوهايو حيث ألقى عدة محاضرات هناك ،وأعلن أول بيان " مانيفستو " لنظريته " المدرسة الطبيعية الجمالية المتكاملة".
- اشترك في العديد من المعارض الجماعية بمصر والخارج منها " People's Show " بولاية مين (أبريل ٩٨٢ معرض الربيع العشرون(١٩٨٥) ، صالون الجمعية الأهلية للفنون (١٩٨٧) ، صالون القاهرة ٥٤ (١٩٨٧) ومعرض فن البورتريه المصري بالجامعة الأمريكية (فبراير ١٩٩٠) ، معرض نداء السلام (١٩٩١) ، معرض الوفاء لصالح ضحايا الزلزال (نوفمبر ١٩٩٢)، ومعرض العطاء بمجمع الفنون (ديسمبر ١٩٩٢) ومعرض العيد المئوي لجريدة البروجريه إجيبسيان بدار الأوبرا (أبريل ١٩٩٣) ومعرض محبي التراث القبطي بجريدة الأهرام، وصالون القطع الصغيرة بمجمع الفنون (٢٠٠٤) و (٢٠٠٦) و المعرض القومي.
- أقام معرضاً حول حوار الحضارات تحت عنوان " على الناحيتين " واستضافه متحف الفنون بتوليدو ثم السفارة المصرية بواشنطن ثم نيويورك (عام ٢٠٠٠).
- أقام معرضاً عن إبداعات الفنان ليوناردو دافينشي عملاق عصر النهضة بدار الأوبرا (عام ٢٠٠٣) تحت عنوان "رحلة الجوكندا" ولقد كان ضيف الشرف العلامة الإيطالي أليساندرو فيتسوسي مؤلف عدة كتب عن ليوناردو ومدير ومؤسس متحف ليوناردو دافنشي ببلدة فينسي مسقط رأس ليوناردو.

اقام معرضاً بعنوان " أنا بيد آخر " (٢٠٠٥).

- حصل على عدة جوائز في مجال التصوير والحفر
  ١- الميدالية الذهبية للبابا بولس السادس في مسابقة الكتاب المقدس عام ١٩٧٣ .
  ٢- المركز الأول في الحفر على مستوى الجامعات المصرية عام ١٩٨٠.
  ٣- المركز الثاني في التصوير على مستوى الجامعات المصرية عام ١٩٨١.
  ٤- الجائزة الأولى لمسابقة الطبيب الفنان بولاية أوهايو عام ١٩٩٧.
- قام بتصوير قصص الكتاب المقدس في أول تجربة من نوعها لفنان عربي من الشرق الأوسط . وقد تم طبع الأجزاء الثلاثة من هذا الكتاب.
- يمارس عزف البيانو والكمان والغناء الكلاسيكي من طبقة الباريتون وقد اشترك في عدة حفلات كونسير جماعية مع جماعة كورال القاهرة " Cairo Choral Society " بالإضافة إلى حفلات ريسيتال فردي وزوجي مع الأستاذة باتريـ ماكدونالد والأستاذ نور شوقي بسفارة تركيا والنمسا وجمهورية التشيك بالإضافة إلى مجمع الفنون بالزمالك والد السوري بالإسكندرية، ويتخصص فريد فاضل في أعمال الكلاسيكيين والرومانسيين أمثال موزارت، بيتهوفن، برامز، شوبان، ماسينييه وإدوارد جريج.
- متزوج من الأستاذة الدكتورة / منى ذكي أستاذة إدارة الأعمال والعلاقات العامة بالجامعة الأمريكية وله ابنتان داليا وللي فريد فاضل.

المراجـــع العربيـــة

١. معالم تاريخ وحضارة بلاد النوبة ، منذ ما قبل التاريخ وحتى العصر الإسلامى ، تقديم د.زاهى حواس – المجلس الأعلى للآثار ، ٢٠٠٦ .

٢. متحف النوبة ، المجلس الأعلى للآثار ، إشراف د.جاب الله على جاب الله ، ١٩٩٧ .

٣. مختصر تاريخ النوبة وتعريف بلغتها ، سامى جمعة على ، دار العلوم للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٨ .

٤. النوبة فى مائة عام ، محمود صالح أبو راس ، ٢٠٠٣ .

٥. إنسان العصر يتوج رمسيس ، د.ثروت عكاشة ، المجلس الأعلى للآثار ، ٢٠٠٨ .

٦. النوبة بحيرة ناصر ، الأسرار والآثار ، أحمد الصغير ، أجيال ، الطبعة الأولى ، ٢٠١٠.

٧. هكذا تكلم النوبيون ، جزء أول وثانى ، ماهر أحمد زكى و عبد الوهاب خليل إبراهيم ، جاسراب للطباعة ، ٢٠٠٩ .

٨. زخارف المنزل النوبى ، ماريان ونزل ، ترجمة فؤاد محمد عكود المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٧ .

٩. النوبة القديمة فى صور ، د.محمد رياض ، د.كوثر عبد الرسول ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية الطبعة الأولى ، ٢٠٠٧ .

١٠. النوبة عبر العصرين ، مركز توثيق التراث الحضارى والطبيعى أ.د.فتحى صالح ، كلمات أ.محى الدين صالح ، مكتبة الإسكندرية ، ٢٠٠٨ .

١١. رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان ، جون لويس بوركهارت ، ترجمة :فؤاد أندراوس ، المشروع القومى للترجمة ، ٢٠٠٧ .

١٢. مصر وبلاد النوبة ، وولتر أمرى ، ترجمة د.تحفة حندوسة ، المشروع القومى للترجمة ، ٢٠٠٨ .